عـــود الـنـــد

مجلة ثقافية فصلية

ISSN 1756-4212

الناشر: د. عدلي الهواري

العدد الفصلي 15 :: شتاء 2020

الكتب الصوتية بديل القراءة؟



ڤاليا أبو الفضل

العالية في رواية قبة آخر الزمان

ملاحظات على المسلسلات البدوية

مقالات :: قصص :: إصدارات جديدة

المحتويات

د. عدلي الهواري

الكتب والقصص الصوتية

هل هي بديل مناسب للقراءة؟



أجهزة تسجيل الصوت قبل ظهور الكاسيت كانت كبيرة. يوضع على طرف الجهاز بَكَرَة فارغة، وعلى الطرف الآخر بكرة لُفّ حول محورها شريط ممغنط يسجل الصوت عليه.

في السبعينيات على ما أذكر ظهر جهاز تسجيل الصوت باستخدام شريط صغير ممغنط داخل غلاف من البلاستيك (كاسيت) وعلى طرفية أيضا مكان ليتحرك الشريط من طرف إلى آخر أثناء التسجيل أو الاستماع إلى الصوت المسجل.

حجم الكاسيت كان في بعض الحالات صغيرا جدا، وكان هذا النوع مستخدما في المكاتب لكي يسجل مدير الشركة مثلا نص الرسالة التي يريد من السكرتير/ة طباعتها.

أصبح كل بيت يملك مسجل كاسيت، وانتشرت محلات بيع الأغاني المسجلة على كاسيتات. وصار من الممكن تسجيل خطابات وأشعار تلقى في المهرجانات. وبهذه الطريقة تعرف الناس على قصائد مثل قصيدة مظفر النواب التي يهجو فيها الزعماء العرب (القدس عروس عروبتكم). ولولا الكاسيت لما حظيت بالانتشار، فالإذاعات ما كانت ستبثها.

ومن المعروف أن لبعض الناس احتياجات خاصة بسب إعاقة ما. وبالنسبة إلى المعاقين بصريا، تمت الاستفادة من وجود الكاسيتات لتسجيل كتب، وكانت أشرطتها تباع في المكتبات مثل الكتب الورقية.

ولكن أمر الكتب الصوتية لم يعد مقتصرا على تلبية حاجة لفئة محدودة

من الناس، كمحدودي الرؤية أو المكفوفين. وقد لاحظت بعد متابعة بعض الفيديوهات على يوتيوب وجود دعايات مباشرة وغير مباشرة لقراءة كتب معينة بصيغتها الورقية، وتوصية بالاستماع إليها إذا كان الشخص غير مغرم بالقراءة المباشرة من كتاب بين يديه.

ودعيت أيضا إلى الاستماع إلى قصص مقروءة، ففعلت لكي تتكون لدي فكرة أفضل عن هذه المسألة. وعلى ضوء كل ما سبق، أود التعليق على هذه المسألة، أي الاستماع إلى الكتب والقصص، إلى آخره، بدلا من قراءتها.

إن القراءة المباشرة من الكتاب أو الصحيفة أسرع بكثير من الاستماع إلى النص نفسه مسجلا. ولذا، عندما أريد أن أستمع إلى قصة من الأدب الروسي مترجمة إلى العربية قد يتعين عليّ قضاء عشر دقائق في الاستماع إليها، في حين أني سأقرأ النص المكتوب في خمس دقائق، أو أقل. وعند الاستماع إلى نصوص مقروءة، وجدت أن التمكن من اللغة أثناء القراءة يتفاوت من شخص إلى آخر.

من الممكن أن تنجذب إلى نص قصير مقروء بطريقة جيدة، وتركز على المحتوى، ولكني أشك في المقدرة على التركيز على ما تسمع عندما يكون النص طويلا. هل حقا تستطيع أن تركز على رواية طويلة أو كتاب علمي مليء بالمصطلحات والنظريات الغريبة؟

ربما لو كنت ضريرا، وبحاجة إلى من يقرأ لك، سوف تركز. ولكني أتحدث بشكل عام هنا. كلنا نعرف تجربة الشعور بالملل عند الاستماع إلى محاضرة طويلة، أو خطاب، سواء أكان ذلك في قاعة صف أم مهرجان إما نتيجة الإطالة، أو الأسلوب الرتيب، وما إلى ذلك. أود لو يصف لي أحد شعوره أثناء الاستماع إلى كتاب علمي. ماذا يجذبه لمواصلة الاستماع إلى أن ينتهي الكتاب؟

كثير من الناس يستخدم سيارة للقيام برحلة قد تستمر ساعات، وهؤلاء يلجؤون إلى الراديو أو الأشرطة أو الأقراص المدمجة للاستماع إلى القرآن الكريم أو الأغاني. ولكن في حالة الكتاب لا أزال غير قادر على استيعاب مسألة التركيز على ما تستمع عليه، وبالتالي احتفاظ ذاكرتك ببعضه.

النقطتان الأهم بالنسبة إليّ هما الوقت والمقدرة على التركيز. وهما نقطتان لا يلتفت إليهما الكثير من الناس الذين يهتمون بالكتب المسموعة أو مشاهدة فيديوهات تعليق على أحداث يهمنا التعرف على الآراء فيها. لشرح هذه الفكرة، أو الإشارة إلى ظاهرة عمل فيديوهات.

كثيرون يعلقون على الأحداث بتصوير فيديو. ونادرا ما تكون الفيديوهات قصيرة. ولذا أنت دائما بحاجة إلى وقت أكثر مما يمكن توفره لأي إنسان، فإذا أردت الاستماع إلى أكثر من شخص يعبر عن رأيه بفيديو، فسوف تحتاج إلى يوم يتألف من ثمانية وأربعين ساعة.

خضت بنفسي تجربة عمل فيديوهات فوجدت أني مهما حاولت أن أوجز، يتكرر في معظم الأحيان تجاوز الدقائق العشر التي كنت أضعها هدفا لنفسي. ومن الواضح أن التعليق على أحدث مهمة، وشرح الخلفيات وتقديم الحجج، يحتاج إلى وقت، وبالتالي لا يمكن التعبير عن رأي في مسألة مهمة بسرعة. وإن أطلت في الشرح، فسوف يحجم الراغبون في الاستماع عن فعل ذلك، أو سيكتفون بدقائق قليلة.

والفيديوهات على أهميتها في إيصال الرسائل والتواصل مع الجمهور، إلا أن فيها إهدارا لوقت المتابعين. الأفضل في رأيي الاعتماد على الكتابة، فأنت في هذه الحالة تقضي وقتا أكبر في ترتيب أفكارك والتعبير عنها، وتوفر على المتابعين الكثير من الوقت.

للمقارنة، سأشير إلى كلمة العدد هذه وغيرها، فهي لا تكتب في دقائق، بل ساعات، وأحيانا أكتب قليلا منها كل يوم وأخضعه للمراجعة. لو قرأتها لتكون افتتاحية مسموعة، فسوف يكون طول التسجيل بضع دقائق. أما في حالتها المكتوبة، فتقرأ في دقيقتين ربما. ولذا، مقابل الوقت الطويل الذي قضاه شخص واحد في الكتابة، حصل توفير في وقت كل من يقرأ الكلمة. ولو سجلت الكلمة صوتيا بصورة مرتجلة، لكان الوضع معكوسا: أوفر الكثير من وقتي، وأستهلك أكثر مما يلزم من وقت كل من يستمع.

خلاصة رأيي في الأمر هي الترحيب من حيث المبدأ بأن يشغل الإنسان نفسه بما هو مفيد، بما في ذلك الاستماع إلى الكتب. ولكن الإنسان المهتم بتطوير نفسه يجب ألا يبخل عليها ببذل مزيد من الجهد، فلا يقضي ساعة على الاستماع إلى فصل من كتاب ولديه خيار قراءة الفصل نفسه في ربع ساعة، فيكون استفاد من وقته بشكل أفضل.

وهيبة قوية

صورة العالية في رواية

قبة آخر الزمان لعبد الواحد براهم

«قبّة آخر الزّمان» رواية تاريخيّة من التّراث للأديب عبد الواحد براهم. صدرت عن المدينة للنّشر سنة 2003. وأعيد نشرها سنة 2015 ضمن «ثلاثيّة الأندلس»: قصص إنسانيّة في خضمّ الصّراع بين الحضارات، الّتي شملت أيضا «تغريبة أحمد الحجري» (رواية) و«إسبانيا حاضنة الأندلس» (رحلة). قُدّمت الرواية في إطار مشروع مسابقة موضوعها «القيم الإنسانيّة النّبيلة... أحداثها تتّجه إلى إحياء «المدينة» وإبراز جذورها الافتراضيّة المستمدّة من تاريخ تونس وتراثها وأهمّ شخصيّاتها الشّهيرة»، وهي الرّواية الفائزة بالجائزة الأولى لمسابقة مدينة «المدينة» للرّواية سنة 2002.



نبذة عن المؤلف

عبد الواحد براهم: أديب تونسي من مواليد سنة 1933. عمل بالتّدريس، وشغل وظائف ثقافيّة عديدة منها ملحقا بمكتب وزير الثّقافة، ورئيسا لمصلحة النّشر بالشّركة التّونسية للتّوزيع، وسكرتير تحرير مجلّة الفكر، وخبيرا بالمنظّمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم، ومديرا لمكتب المنشورات الجامعيّة، ورئيسا لاتّحاد النّاشرين التّونسيّين.

كتب القصّة والرّواية وأدب الرحلة وقصص الأطفال والشّباب، وله مساهمات نقديّة ودراسات منشورة في أكثر الصّحف والمجلاّت بتونس،

وأشرف على جائزة مصطفى عزّوز لأدب الأطفال. حصل سنة 1978 على وسام الجمهورية، كما حصل على جوائز عديدة. ترجمت بعض أعماله إلى الفرنسيّة والرّوسية والإسبانية.

له مؤلفات عديدة منها: سيدي بوغرارة (قصّة للأطفال: 1968)؛ في بلاد كسرى (أدب الرّحلة: 1971)؛ ظلال على الأرض (قصص: 1997)؛ حبّ الزّمن المجنون (رواية: 2001)؛ أصوات قرطاج (مسرحية شعرية: 2008).

العالية في الرواية

اختار الأديب عبد الواحد براهم القرن السّادس عشر ميلاديّا تاريخا لروايته، وتحديدا فترةَ تهجير المسلمين من الأندلس وبداية وصولهم إلى تونس، والصّراع التّركي الإسبانيّ في تونس[1] مستثمرا سيرة أحمد بن قاسم الحجريّ[2] وخطّته لترك الأندلس إلى المغرب ثمّ إلى تونس[3] حيث مدينة السّلام الّتي يحلم بها، والّتي يسودها العدل والطّمأنينة ويتعايش سكّانها في وئام وتفاهم[4]. واستعان في ذلك بشخصيّة بطل الرّواية: بدرو أو بدر الدّين بن محمّد الحجري ابن أخيه[5].



تنقل الرّواية حكاية بدر الدّين الحجري، الطّفل الّذي ربّاه عمّه أحمد الحجري متخفّيا بإسلامه، خوفا من محاكم التّفتيش، ثمّ رحلته إلى تونس ضمن الجيش الإسبانيّ، وفق خطّة وضعها عمّه ليبحث عن أفراد عائلته (والديْه وزوجة عمّه). فقد رُحّلت عائلة بدر الدّين الحجري عن الأندلس بعد أن افتكّوه من حضن أمّه مثل كلّ الأطفال الّذين افتكّوهم من عائلاتهم المطرودة وأوكلوا تربيتهم إلى النّصارى. ولكن بفضل مكانة أحمد الحجري العلميّة وتقرّبه من النّصارى تماديا في إخفاء إسلامه، تمكّن من تربية ابن أخيه بنفسه على الإسلام.

وحين كبر بدر الدّين، سافر إلى تونس مع الجيش الإسبانيّ، ضمن الحملة على تونس والصّراع مع العثمانيّين، وتمكّن من الانضمام إلى الجيش المكلّف ببناء البستيون[6]. واستطاع بمساعدة تاجر موادّ البناء أحمد الجيّار من لقاء أبي الغيث القشّاش[7] في زاويته والّذي سهّل له أمر رحلة البحث عن عائلته في ربوع ولاية بنزرت، وتحديدا العالية حين أرسله إلى سيدي عليّ الشّباب[8].

كان أمل بدر الدّين وعمّه أن يصلا إلى مدينة السّلام. ولذلك كانت الحيلة

للوصول إلى تونس والبحث عن أفراد العائلة، ومن ثمّة العيش في طمأنينة في مدينة «لا يدخلها إلاّ طالب الهناء والرّاحة» (ص 206). «مدينة السّلام، مدينة الأحلام» (ص 205). «هي مدينة لا تعرف روائح البارود ولا دخان الحرائق. لم تسمع أنين الجرحى ولا صياح الثّكالى. لم يعرف الألم طريقه إليها أبدا، وليس إلاّ السّرور الدّائم وراحة النّفس منذ أن تدخل أبوابها» (ص 201).

وقد ورد ذكر مدينة السّلام، المدينة الموعودة، وإن توضّح في كلّ الرّواية أنّ تونس كلّها، ورغم ما شهدته من صراع الأتراك والإسبان، أرض سلام وخاصّة للأندلسيّين الهاربين بدينهم وحياتهم، فيصفها الكاتب في بداية الرّواية (ص 34) في قول بدرو لنفسه: «ليتني آخذك معي يا خوانا إلى مرافئ النّجاة. لقد وجدت مدينة لا تصل إليها نيران المنتقمين. طيري بها أيّتها الرّياح. خذيها إلى مدينة الرّحمة حيث لا ضيم ولا ضرار، فكلّ الأطفال سواء، وكلّ الرّجال سواء، وكلّ النّساء سواء. إنّني أراها الآن أبوابا عالية كتب عليها: ادخلوها بسلام آمنين».

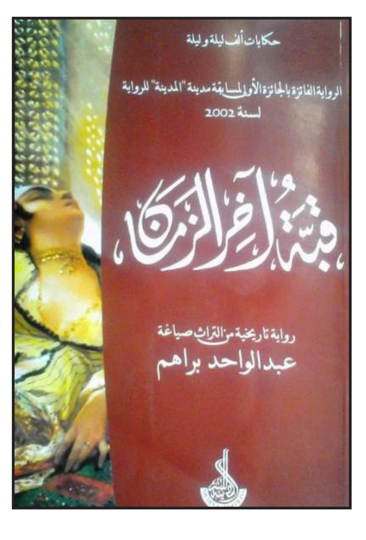
وعاد الكاتب إلى ذكرها ومزيد وصفها في آخر الرّواية حين اجتمعت عائلة بدر الدّين في العالية ثمّ في زاوية القشّاش بعد ذلك. وتنتهي الرّواية بدخول عائلة أحمد الحجري إلى مدينة السّلام لتنفتح أكثر على القيم الإنسانيّة الثّابتة مثل التّسامح والأمان والسّلام. ولكن: ما علاقة العالية بأحداث هذه الرّواية التّاريخيّة؟ وبمدينة السّلام؟ وما هو دورها في سير أحداث الرّواية؟ وما الصّورة الّتي قدّمها بها الأديب عبد الواحد براهم؟

المكان وأهمّيته في الرّواية: العالية فضاء مكانيّ للرّواية

حين يسافر بدر الدّين صحبة أحمد الجيّار إلى سيدي عليّ الشّباب، تصبح العالية والطّريق إليها فضاء للرّواية تدور فيها الأحداث، بداية من الصّفحة 107 في قوله: «أهالي صاحبك وضيفك توجّهوا إلى بنزرت. وصلوها أو توقّفوا قبلها فهذا غير واضح... والشّيخ نصر سيبعث لك كرّيطة[9] وبعض المؤونة ويوصيك بأخذ العائلة كلّها معك كأنّك ذاهب لزيارة سيدي عليّ الشّباب، وهذا أصلح للتّمويه على الحراسة ولإخفاء ضيفك في صورة امرأة من جملة أفراد العائلة» إلى الصّفحة 182 بعودة بدر الدّين إلى العاصمة للبحث عن عمّه أحمد الحجري الّذي خرج من الأندلس هروبا بدينه وحياته.

يقول (ص 182): «وعادت الكرّيطة من حيث جاءت قبل أسبوع ولكن بدون ركّابها الأوائل، ووقفت الأسرة كاملة تودّعها، الرّجال عند باب الدّار

والنّساء فوق السّطح، أمّا الطّفلان فأخذا يجريان وراء العربة إلى أن دارت مع منعطف ينحدر بشدّة نحو السّهل».



على امتداد سبعين صفحة ونيف، تدور أحداث الرّواية في العالية أو في الطّريق إليها انطلاقا من زاوية أبي الغيث القشّاش بتونس، وفي زاوية سيدي عليّ الشّباب. ولئن جاء هذا الاختيار في ظاهره للتّوسّع في تاريخ الأندلسيّين المطرودين[10] بذكر تشتّتهم وحالهم وحال البلاد في أواخر القرن السّادس عشر وما فيه من صراعات انتهت بسقوط الدّولة الحفصيّة وتولّي العثمانيّين الحكم، فإنّه لا يخلو من التّخييل في صياغة الرّواية وأحداثها، وخاصّة في علاقة أبي الغيث القشّاش بسيدي عليّ الشّباب الّتي أفرزتها حبكة الرّواية انطلاقا من دور القشّاش التّاريخيّ في استقبال الأندلسيّين المهجّرين قبل توجيههم إلى بعض الأراضي التّونسيّة لتعميرها، كلّ مجموعة بحسب مهاراتها في العمل وخاصّة منه الفلاحيّ.

وتشكّل المكان تبعا لذلك باعتباره الفضاء الفكريّ والاجتماعيّ والتّاريخيّ الّذي تدور في فلكه الشّخصيّات والأحداث في هذه المرحلة من الرّواية. فالمكان إذن، مكوّن روائيّ جوهريّ، ومكان تاريخيّ أتقن الرّوائيّ استثماره لتتطوّر من خلالها الأحداث والشّخصيّات والعلاقات بينها.

الأبعاد الفنيّة والتّاريخيّة للعالية
باعتبارها فضاء روائيّا: القيمة الفنيّة

اهتمّت الرّواية بوصف المكان منذ خروج الجماعة من العاصمة. فوصفت الحِراسة المشدّدة على أبواب المدينة لينكشف معمار مدينة تونس العامّ، فهي محاطة بالأبواب والحراسة وتفصل بين عالمين داخلها وخارجها. وقد وصفتها الرّواية حين وصول بدر الدّين إليها وقدّمت صورة عنها.

كما تتوضّح صعوبة الخروج منها في تلك الظّروف العصيبة إبّان الحرب بين الإسبان والأتراك على تونس وانفتاحها على الطّرقات الّتي يتعرّض فيها

المسافرون إلى النّهب. وقد احتاج بدر الدّين إلى خطّة لأجل ذلك وضعها له أبو الغيث القشّاش. فأوهم الحرّاس على الباب بأنّ القافلة في «مهمّة مقدّسة» (ص 111) تحمل مساعدات أبي الغيث القشّاش للفقراء في زاوية سيدي عليّ الشّباب. فمرّت القافلة من أمام الحرّاس الّذين تأكّدوا: «أنّهم لا يمثّلون خطرا، أو على الأقلّ لا علاقة لهم بالنّزاع الّذي هم فيه» (ص 111).

ونتبيّن من خلال هذا الموقف علاقتهم بأصحاب الزّوايا والّتي تكشف عن قيمة أهل العلم ومريديه ومكانتهم في نفوس النّاس وهيبتهم. حتّى في غيابهم لم تغفل الرّواية عن ذكرهم: «فيرتفع تبعا لذلك مقدار الخشوع في أعين الجند إذا كانوا مسلمين، بل قد يصيبهم الهلع إذا كانوا من الأعراب» (ص 111). وفي هذا أيضا إشارة إلى الأمان الّذي سيرافق بدر الدّين وهو يبحث عن عائلته وبأنّ الأمر ميسّر له على أرض تونس بفضل وصاية أحد علمائها.

يُفتح باب المدينة إلى العالية على جمال لافت اعتنى به الوصف فتوهّجت الطّريق بالمشاعر تتماهى فيه الطّبيعة الخلاّبة بمشهد رومنسيّ بين بدر الدّين ومرجانة فنغفل معه بعض الوقت ثمّ ننتبه حين ينتبه:

«دعيني أتملّى منظر الطّبيعة الجميل، إنّنا لم ننتبه إليها طول الطّريق. ألا تعجبك تلك الحقول اليانعة بخضرة لا تنتهي كأنّها سجّاد مخمليّ مطرّز. والأزهار من كلّ شكل ولون. انظري ما أجملها» (ص 115).

وكأنّ الطّريق مسار مشاعر تستقرّ بين الإثنين فننسى المكان حتّى نتفاجأ بكلام بدر الدّين، الأندلسيّ الآتي من الحجر الأحمر بغرناطة وبساتينها وجمال طبيعتها، والّذي رغم محنته لم تفته الإشارة إلى الجمال، فنعلم أنّ الرّواية تسير إلى طمأنة الشّخصيّة الرّوائيّة وتعدها بالسّلام الّذي جاءت تبحث عنه. بل كأنّ أبواب المدينة تنغلق على الحروب والنّزاعات، فمن يخرج من الحرب يستقبله الأمن في مكان ينعم باطمئنان طبيعيّ. هذه الطّريق نفسها سار عليها أوّل الأندلسيّين السّالكين إلى شمال تونس قبل بدر الدّين وبعده في آخر هجراتهم سنة 1609، فأسّسوا مدن سلام ما زالوا يعيشون فيها إلى اليوم[11].

لا يقف وصف المكان على الباب والطّريق، بل شمل موقعا كان سكنه الأندلسيّون في بداية هجرتهم إلى ساحل بنزرت. والمكان يسمّى باسم موطن مؤسّسيه «غرناطة» ولكن لم يسكنوه طويلا فقد اضطرّوا إلى تركه بعد هجمات الأعراب، وانتشروا في طرقات كثيرة أوصلتهم إلى ساحل بنزرت فعمّروه. ومنهم من سلك نفس الطّريق الّتي يسلكها بدر الدّين في الرّواية، فوصلوا إلى العالية وأسّسوها على أنقاض أوزاليس الرّومانيّة.

تصير الطّريق صفحة من صفحات التّاريخ يقرأها بدر الدّين بقلم الرّوائيّ المتمكّن من التّاريخ والواسع المعرفة. ويصير المكان متنوّع المعنى إذ يجمع بين الجمال والسّلام والصّعوبات الّتي تواجه العابرين كما واجهها الهاربون من «غرناطة» هناك، إلى «غرناطة» على الطّريق الرّابطة بين تونس والعالية، وساحل بنزرت. نقطة عبور بحجم تاريخ نراجعه مع الرّواية ونسير إلى «مدينة السّلام» آخر الطّريق.

وتأخذنا الصّفحات في رحلة تتراوح بين التّاريخ والرّاهن، كما تتروح المشاهد الطّبيعيّة والمصاعب حتّى نصل العالية مع شخصيّات الرّواية. ويكون اللّقاء. وتصير العالية أكثر وضوحا في الرّواية، فهي مكان وفّر السّلام للأندلسيّين المؤسّسين، واللاّحقين، كما مدينة السّلام بالحمّامات والّتي سيستقرّ بها أحمد الحجري حين يجد عائلته، وكلا المكانين مكوّنين من صورة السّلام العامّ في تونس رغم الصّراع التّركي الإسباني. فتونس قدّمت للوافدين الأندلس مساعدات كثيرة، وتجلّت في الرّواية بالخصوص في شخص أبي الغيث القشّاش الّذي آوى اللاّجئين من الموريسكيّين وأطعمهم وساهم في استقرارهم في بعض مناطق تونس الّتي انسجموا مع أهلها أو أسّسوها على الأنقاض مثل العالية.

هي أرض لقاء: عليها التقى بدر الدّين بعائلته، والتأم شمل الأندلسيّين المهجّرين. وعلى أرضها كان لقاء قلبه بقلب مرجانة، وقد وصلا العالية وهما في غمرة من العشق ولقاء الرّوحين وانسجامهما. أليس اللّقاء أحد تجلّيات قيم الحبّ والتّسامح والسّلام والنّبل؟

هكذا بدأت تتشكّل العالية في الرّواية، إنّها أرض أخرى من تونس يستقرّ فيها السّلام في تونس. كما الحمّامات الّتي صيغت لأجلها الرّواية والّتي ذُكرت باعتبارها أرضا موعودة ستختم على أرضها الرّواية، والّتي يكاد القارئ ينساها في غمرة اهتمامه ببقيّة الأمكنة وخاصّة بالعالية.

هكذا تأخذنا الرّواية في رحلة تاريخيّة من مكان إلى مكان وتفتح صفحات من تاريخ تونس، رحلة لا تخلو من الفنّ الرّوائيّ المشبع بالخيال مع شخصيّاته الّتي تحملنا في روعة الحكاية وتحاورنا، لنفكّر ونتدبّر، فننسى التّاريخ ونعيش الرّاهن في هذا القرن الّذي احتدّت فيه النّزاعات وصار الإنسان بحّاثة عن أرض السّلام خارج أسوار الحضارة وصراعاتها الدّائرة. فأيّ تاريخ يرويه عبد الواحد براهم في روايته؟ أليس هو تاريخنا المعاصر يحاور تاريخنا الماضي؟ أوَليست الرّواية قراءة في حاضرنا وتفاصيله الّتي غلّقت أبوابها على الإنسان فصار ينشد السّلام فيما يُشرق من ماضيه؟

القيمة التّاريخيّة

أمّا القيمة التّاريخيّة فهي جليّة للقارئ إذ يتابع دخول الأندلسيين إلى العالية في هذه المرحلة والتحاق عدد منهم في آخر هجراتهم عن طريق بعض الأقوال الواردة في الرّواية والّتي تستند إلى تاريخ معروف وإن حاد في بعض التّفاصيل إلى الجانب الرّوائيّ وصياغة الإبداع. فقد جاء في الرّواية على لسان أحد سكّان العالية ما يلي: «آخرُ من قدم إلى جهتنا من الأندلس جماعة لا يزيد عددهم عن الأربعمائة نفر. وقد وقعوا في صعوبات جمّة، ولكنّ الله أغاثهم وأعانهم» (ص 117).

كما يتّضح ذلك في تفسير وكيل الزّاوية (ص 118): «جاؤوا ومعهم مكتوب من السّلطان ليختاروا أرضا مناسبة في بنزرت أو ضواحيها، لكن أغلب الجماعة جباليّة، وليس فيهم إلاّ قليل من أهل المريّة اختاروا مواصلة الطّريق إلى بنزرت. لذا بقي أغلبهم في المنطقة، واختاروا السّكن قرب النّهر[12] المارّ في تلك السّهول السّفلى، من حيث مررتم عند قدومكم» (ص 117).

ويضيف: «عزموا على إنشاء مدينة جديدة فيه، حتّى أنّهم أطلقوا عليه اسم غرناطة. وما زال أهل المنطقة يعرفون المكان ذاته باسم ڤرناطة.»[13] (ص 111). ثمّ أضاف أنّهم تركوا هذه السّهول بسبب هجمات الأعراب: «أخبروني بعد الخطرة الكبيرة أنّهم قرّروا الانتقال صعودا نحو الأعلى تاركين محاصيلهم جميعا، ومباني صغيرة آوتهم طيلة عام ونصف» (ص 118).

هذه الإشارات المكانيّة الواردة في الرّواية عن العالية تعطي لمحة عن تاريخها بإيجاز وعموميّات. وهو ما نجده أيضا في كتب التّاريخ الّتي تجعل العالية دائما مقترنة ببعض القرى الأندلسيّة الأخرى الّتي أسّسها الأندلسيّون وخاصّة قلعة الأندلس وراس الجبل وغار الملح وطبربة[14].

ولا نكاد نجد عن العالية أخبارا تفصّل تاريخها وتفسّره. وقد انتبه الكاتب إلى ذلك فكأنّه أرجع هذا الفراغ في الأخبار إلى انزواء أهلها وخوفهم خاصّة بعد ما لحقهم في وطنهم أو في طريقهم إلى العالية من هجمات الأعراب حين أسّسوا «غرناطة» على الطّريق الرّابطة بين تونس والعالية وبنزرت. إذ قال: «فمن ذا يعرف مكانهم؟ وما حاجة النّاس بهم وهم المنقطعون عن وطنهم الأصليّ؟» (ص 123). ويضيف: «إلى أن امتلأ صحن الجامع الصّغير وانسدّ بابه بالأطفال الصّغار يدفعهم الفضول لأنّهم لم يعرفوا في حياتهم بشرا غير أهل قريتهم» (ص 124).

وقد أتقن عبد الواحد براهم وصف خوف أهل العالية حين دخلت عليهم الجماعة إذ يقول: «نبحت الكلاب تستقبل الغرباء بشراسة تدرّبت عليها وحاولت مهاجمتهم فهشّها أحمد الجيّار بالعصا وأطلق الزّمزميّ النّار من بارودته فأفزعها وجعلها تتقهقر. وبفعل ما حصل من ضجيج أطلّت من السّطح أشباح ملتحفة بأردية صوف خشنة وشرعت تلقي الحجارة ناحية القادمين وتطلق صراخا غير مفهوم» (ص 121).

أمّا ذكر الجامع في الرّواية فلم يستند إلى مرجعيّة تاريخيّة واضحة، كما هو الحال في كتب التّاريخ الّتي التبس عليها ما ذكر على نقيشة الجامع أو في بعض الوثائق الّتي ذكرت تاريخين مختلفين لبنائه. غير أنّ عبد الواحد براهم دفع الأحداث انطلاقا من الجامع في صورة معروفة لوظيفته الّتي تناقلتها الأجيال باعتباره مركز لقاء ومكان يحتمي به الغرباء.

وليس من تاريخ واضح لكلّ العالية، فالمصادر شحيحة والمعلومات قليلة الوضوح بشأنها. وليس إلاّ ما توارثه أهلها من عادات تشي بنمط الحياة الّذي عاشوه، وهو نمط فلاحيّ اعتمدوا فيه على أنفسهم خاصّة أنّهم أصحاب حرف تتعلّق بالفلاحة وآلاتها. أو حديث عن أسماء العائلات الّتي تمّ إحصاؤها في فترات لاحقة وعُرف بها أصل أهل العالية.

كلّ ذلك استثمره الرّوائيّ في صياغة روائيّة متينة لا تحيد عن المعلومات المعروفة عن العالية إلى حين ظهور الرّواية[15] وإلى اليوم. وتبدو براعة الرّوائيّ الفنيّة جليّة إذْ صاغ تاريخ تأسيس العالية على لسان شيخ تسعينيّ تخونه الذّاكرة فيما يرويه لبدر الدّين الحجري وأحمد الجيّار. إذ ورد في صفحة 123: «حكّ المؤدّب المسنّ رأسه كأنّما لينشّط ذاكرته الّتي خانته عند روايته للأحداث»، فكان ذلك أقرب إلى تصديق ابتعاد العالية عن الطّرقات المؤدّية إليها. وهي حيلة فنيّة لتفادي نقائص الأخبار[16].

ومن خلال هذين البعدين، الفنّي والتّاريخيّ، تتجلّى صورة العالية في الرّواية[17]:

صورة العالية في الرّواية: قرية أندلسيّة

العالية، حسب الرّواية، قرية أندلسيّة تأسّست قبل التّهجير الأخير من الأندلس، ودليل ذلك ما ورد في حديث وكيل زاوية سيدي عليّ الشّباب والمؤدّب في جامع العالية عن وصول جماعة من أربعمائة فرد إليها فرارا من هجمات الأعراب في السّهول بقرناطة الّتي أسّسوها قبل عام ونصف من دخولهم العالية.

ولكن لا نجد إشارة واضحة إلى سنة التّأسيس أو إذا كانت تلك العائلات لاحقة بجماعة أخرى أم هم أوّل الواصلين إليها. ويعني ذلك أنّ الرّواية لا تؤرّخ للمدينة ولكن تتنزّل في تاريخ محدّد للمكان وفي الفترة المناسبة للأحداث الّتي اختارها عبد الواحد براهم لتكون الفضاء المكانيّ والزّمانيّ لروايته. والمنطلق التّاريخيّ لم يمنعه من إضافة قيمة فنيّة لإعطائه البعد الإنسانيّ الّذي تصبو إليه الرّواية. فيلتقي بذلك الإبداعيّ بالتّاريخيّ في امتزاج لا يزعج التّاريخ ولا يثقل أساليب الكتابة الرّوائيّة.

موقعها

بدأت الرّواية بتحديد موقع العالية العامّ بالنّسبة إلى بنزرت: «فالأقرب أنّهم في بنزرت، لأنّ تاريخ قدومهم يصادف تاريخ توجّه جماعة إلى هناك وقد وجدت هذا مسجّلا في دفاتر الزّاوية» (ص 102) ولذلك أرسلهم أبو الغيث القشّاش إلى سيدي عليّ الشّباب: «نحن عائلة من فُقْرَّة سيدي القشّاش ذاهبون لزيارة سيدي عليّ الشباب في العالية».

وقد وُصفت الطّريق إليه في قوله (ص 112): «وجدت القافلة طريقها سهلا عبر الهضاب الفاصلة بين تونس وبنزرت ولم تعترضها عوائق تذكر». وحين تقترب القافلة من سيدي عليّ الشباب يصف الهضبة وارتفاع المكان: «تكاثر اهتزاز العربة وهي تصعد هضبة سيدي عليّ الشباب»، حتّى يصل إلى تحديد قرية العالية في الصّفحة 118: «لا تصلح الأراضي الواطئة للسّكن، لا بدّ من الجبل إذا شاء المرء الدّفاع عن نفسه بصورة مجدية. أخبروني في الخطرة[18] الكبيرة أنّهم قرّروا الانتقال صعودا نحو الأعلى».

ويضيف (ص 120): «واصلت القافلة في الغد الصّعود نحو الرّوابي المواجهة للزّاوية ولكن على ظهر الدّوابّ لوعورة المسلك، واتّجهت إلى قرية العالية». كلّ هذه الإشارات جاءت متفرّقة تصف أسباب اختيار الهضبة العالية لتأسيس العالية كما تشير إلى موقع يصعب الوصول إليه تحفّظا من الهجمات المحتملة وزيادة في الاحتياط لتوفير الأمن للأهالي.

الطّبيعة

لم يغفل الكاتب عن جمال الطّبيعة في الطّريق إلى العالية الّتي تميّزت بخصوبة أراضيها وجمال طبيعتها. يقول (ص 115): «دعيني أتملّى منظر الطّبيعة الجميل. ألا تعجبك تلك الحقول اليانعة بخضرة لا تنتهي كأنّها سجّاد

مخمليّ مطرّز، والأزهار من كلّ شكل ولون». وتنسجم مشاعر بدر الدّين ومرجانة مع جمال الطّبيعة وتترك لنفسها فرصة التّمتّع بالجمال والعشق معا. وكأنّ المكان ما وُصف إلاّ لأجل الحالة الوجدانيّة الرّومنسيّة الّتي بدأت تأخذ مكانها في قلبيْ الشابّين.

كما قابل الكاتب طبيعة العالية بطبيعة الحجر الأحمر فيقول: «وسرّح بصره في الملكوت المترامي سهولا ومزارع وخضرة لا تحدّ، ولا يكلّ منها البصر. ها هي يا بدرو مزارع الحجر الأحمر وخضرتها وشمسها الغاربة. أتتذكّرها؟ أليست هذه روعة الغروب؟»

كلّ هذا يضيف شحنة من العاطفة والحنين إلى الأهل والأوطان، لنشعر بحجم مأساة الأندلسيّين المهجّرين، ومأساة بدر ومن خلالها الأطفال الّذي تربّوا بعيدا عن أهلهم عند النّصارى. مثل هذه الصّورة تُبعد اليأس عن نفس بدر ليواصل البحث عن أهله. فما تشابُهُ المكانين إلاّ أمل يبشّر بقرب لقاء الأهل.

المعالم والمعمار

ماذا يمكن أن يكون شكل قرية في بداية تكوّنها غير نواة أولى حول جامع يحفظ للنّاجين بإسلامهم ممارسة دينهم باطمئنان؟ لهذا نجد الجامع وقد مثّل مكان لقاء الأهالي بالضّيوف مضطلعا بدوره الدّينيّ والاجتماعيّ معا. فبيت الله آمن مكان للغرباء. حتّى وإن بدا في الوصف «صغيرا»، سريعا ما امتلأ بالنّاس الوافدين على الضّيوف. وبدت البيوت: «قميئة متراصّة يتوسّطها جامع صغير تحاول مئذنته القصيرة مطاولة سماء زرقاء صافية» (ص 120).

هذه قرية العالية في الرّواية. وليس هذا تقصيرا من الرّوائيّ، ولكنّها ضرورة يفرضها سير الأحداث. فالشّخصيات ليست في نزهة ولا سياحة وإنّما في بحث عن عائلة طال الشّوق إليها ولا يُعلم عنها خبر يطمئن.

أهل العالية

يعود أصل أهل العالية[19] حسب الرّواية إلى مدن أندلسيّة مختلفة، ولكن لم يتسنّ ضبطها كلّها:

«سأل بدر الدّين، لمّا جمعكم الإسبان في دانية وقاموا بالفرز، لم يكن النّاس جميعا قادمين من جهة واحدة. أليس كذلك؟

= طبعا يا ابني طبعا.

= إذن من أيّ الجهات كانت الغالبيّة؟

= من جهات لا يعلمها إلاّ الله.
= أنت مثلا من أيّ منطقة قدمت؟
= أنا نشأت في مرج أخضر كبير يكثر فيه الرّعاة وتسمّن أبقارا من نوع ممتاز لا أتذكّر الآن ما يطلق عليه.
= وما اسم هذا المرج؟
= اسمه مرج بيّانه ويقع بين نهرين.
= هذا مرج واسع وفيه قرى ومدائن كثيرة. ما اسم قريتك أنت؟
= اسمها عند الإسبان أجيلار ونسمّيها نحن العرب بلّي» (ص 138).

تضاف أمكنة أخرى تحدّد أصل أهل العالية حسب ما جاء في كلام الرّجل الأشقر الّذي قال: «أغلبنا من لوشا وأنتقيرة واللّسّانة، وقد يكون جماعة الحجر الأحمر جاؤوا معنا لكن حطّوا في مكان ثان وإن شئت أخذناك ناحية الشّطوط للبحث هناك» (ص 149). هذا إضافة إلى منطقة الحجر الأحمر: «سمعت ما يشبه لهجة قريتنا» (ص 125).

وذكرت الرّواية أعمار أهل العالية لتحدّد الهرم الاجتماعيّ الّذي يكوّن أهلها: «هناك أشياء كثيرة ضاعت من ذاكرتي ولكن أبناء القرية مازالوا يتذكّرون وفيهم بعض الشبّان». «قريتكم لا تضمّ إلاّ كهولا على باب الشّيخوخة وأطفالا صغارا ولدوا بعد النّفي» (ص 139).

ملامح حياتهم اليوميّة: صنائعهم، حرفهم، لباسهم

أهل العالية فلاّحون، بسطاء ونكاد لا نعرف عنهم إلاّ هذا الملمح العامّ لحياتهم. نضيف إليه عمل النّساء في الغزل. كما نتبيّن مشاركة المرأة في حماية البيوت والقرية. فما إن نبحت الكلاب وأطلق الزمزميّ[20] النّار حتّى: «أطلّت من السّطوح أشباح ملتحفة بأردية صوفيّة خشنة وشرعت تلقي الحجارة ناحية القادمين وتطلق صراخا غير مفهوم.» فـ: « ليس غير النّساء في القرية» (ص 121). ونفهم إضافة إلى ذلك مدى الخوف المسيطر على النّفوس فقد قاسوا ما قاسوه في الأندلس إضافة إلى تجربتهم في السّكن في السّهول قبل مجيئهم إلى العالية.

ويظهر أهل العالية فضوليّين، فقد ازدحم الجامع بالأهالي وغصّ، وهم يستقبلون الضّيوف في الجامع باعتباره مكانا محايدا وأبدوا استعدادهم للمساعدة وبذل الجهد في ذلك. فكلّهم أصحاب محنة واحدة وإن فرّقتهم الهجرة. كما بدوا

متعاطفين مع بعضهم يرفضون إقصاء الفقراء خاصّة حين ذكرت النّساء في بيت الغزل وقد غاب عنهنّ معيلهنّ: «وإذا وجد بيت لا رجل فيه هل ننساه؟ هل هذه هي المروء وهذا هو التّعاون والتّضامن الّذي أقسمنا عليه اليمين من يوم وصولنا إلى هنا؟»

قيمة هذه الصورة وأبعادها

بجمع أشتات صورة العالية نتحصّل على صورة نعرفها عنها ولكن تعود إلى نواة أولى أو صورة مصغّرة عمّا هي عليه اليوم أو حتّى في ما عرفه أجدادنا ووصلنا منهم عن طريق الرّواية الشّفويّة وكما وردت في وصف القسّ فرنسيسكو خيمينيث الّذي زار العالية في 1725. وتظلّ صورة تتأرجح بين الواقع والمتخيّل الرّوائيّ في كثير من عناصرها أخرجها الأديب عبد الواحد براهم في صورة نحبّ تفاصيل السّلام والتّسامح فيها.

لفّ النّسيان وعدم الوضوح ما تعلّق بالعالية في الرّواية، فبدت صفحات تاريخها قليلة الوضوح رغم أنّنا بتركيب أجواء الصّورة نحصل على العالية كما تناقلتها أحاديث الذّاكرة الّتي تناقلها أجدادنا. وفي رأيي تلائم اختيارات الكتابة في الرّواية ويضفي عليها بعدا إنسانيّا ينسجم مع فكرة مدينة السّلام الّتي انبنت عليها الرّواية. ويفتح مجالات أوسع لتحيين الرّواية وطرح أسئلة الرّاهن.

وقد جاء في الرّواية ما يثبت ذلك في الحديث عن تونس حالما دخلها بدر قادما من الأندلس:

«تُرى من هو حاكمك الحقيقيّ يا تونس؟ أيّتها المدينة البيضاء الصّغيرة ذات الشّوارع الملتوية والأزقّة الضّيّقة... بوحي بما تحمّلت من تهشيم وتخريب، واذكري أيّ قوّة تجعلك تنتفضين متمرّدة على الموت رافضة للهزيمة فتلعقين جراحك بعد كلّ معركة وتجمعين صغارك من جديد كالقطّة الخائفة لتستمرّ وكأنّ شيئا لم يحدث. فمن أين تستمدّين الشّجاعة ومن أين تأتين بهذا الصّبر؟» (ص 56-57).

أيّ تونس يخاطبها الرّوائيّ في نصّه؟ هل هي تونس القرن السّادس عشر زمن حرب الإسبان والأتراك على أرضها أم هي تونس قبل الثّورة أم بعدها؟ أيّ تاريخ يمكن أن نؤرّخ به هذا المقطع والرّواية تاريخيّة تعود إلى تاريخ بعينه وكتبت في 2002؟ هكذا الإبداع، لا تاريخ له.

ماذا لو لم تكن مدينة الحمّامات هي مدينة السّلام الّتي سيستقرّ فيها بدر الدّين وأهله، هل كان ليترك العالية؟

= = =

الهوامش

[1] بدأ القتال بين العثمانيّين والإسبان في 1573-1574 واستعاد العثمانيّون تونس إلى حكمهم بعد أن افتكّها الإسبان في غزوتهم سنة 1535.

[2] ولد في 1569 وهو أصيل جهة الحجر الأحمر. وهي القرية الّتي لم يتمكّن المؤرّخون من تحديدها على وجه الدقّة. فيقول البعض إنّه أصيل قرية لاشار الّتي تقع بالقرب من غرناطة. ويقول إسماعيل العثماني إنّ الحجر الأحمر هي ترجمة لكلمة تييرا دي باروس. وقد عُرفت هذه القرية الصّغيرة بتربتها الحمراء الّتي كان يستعملها السكّان في الحرف الخزفيّة. وتوجّه أحمد الحجريّ إلى غرناطة تقريبا منذ سنة 1588 وعمره 19 سنة (ص 16-17 من كتاب ناصر الدّين على القوم الكافرين. تحقيق حسام الدّين شاشية: ارتياد الآفاق 2015، ط1).

[3] أعاد الأديب عبد الواحد براهم صياغة أطوار رحلة أحمد الحجري في روايته «تغريبة أحمد الحجري» والّتي اعتمد فيها على نصّ قديم بعنوان: «ناصر الدّين على القوم الكافرين» كتبه المترجم الرّحّالة الأندلسيّ أحمد بن قاسم الحجري الأندلسيّ وروى فيه رحلاته عبر أوروبا ومصر وبلاد المغرب بعد أن خرج من الأندلس إثر سقوط غرناطة وصدور قرار نفيه.

[4] وهو موضوع مسابقة المدينة الّتي فازت فيها الرّواية بالجائزة الأولى في 2002.

[5] شخصيّة مبتكرة لخدمة أهداف «المدينة» كما في نصّ المسابقة. والأحداث تدلّ على أنّه مخلوق روائيّ لا واقعي وإن أحاطت به شخصيات من الواقع وأمكنة واقعيّة تاريخيّة.

[6] «وأمّا البستيون [الحصن] فكان خارج باب البحر قرب كنيسة النّصارى، وكان أشدّ ضررا على أهل تونس من غيره لأنّهم أرادوا أن يبنوا فيه حصارا ومدينة وقد ابتدؤوها، وفصّلوا شوارعها وأسواقها، وكادت أن تسكن لولا لطف الله ومعالجة العساكر العثمانيّة، والّذي تمّ لهم منه قلعة

واحدة، فكانت الحرب عليها لما دخلت العساكر العثمانيّة.» عن كتاب نزهة الأنظار في عجائب التّواريخ والأخبار ومناقب السّادة الأطهار، الجزء الثّاني، المقالة العاشرة، في ذكر بني حفص، تأليف محمود بن سعيد مقديش، أبي الثّناء الصّفاقسي، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان 1971 تحقيق محمّد عثمان. (نسخة إلكترونيّة).

[7] القشّاش: أبو غيث (1621/1551) كانت زاويته ملجأ المهاجرين قبل توزيعهم على الجهات بإشرافه بعهد وعلم أخضر مع نقيب. (أحمد الحمروني، المدوّنة الموريسكيّة التونسيّة، عن دار سحر ضمن سلسلة كتاب الشّهر، عدد 21، ص 75).

[8] من الأولياء الصّالحين بالعالية، على مسافة كيلومترين من مركز المدينة العتيقة، وهو في قرية سيدي عليّ الشّباب، يقال إنّ أصوله من قصور السّاف من ولاية المهديّة، جاء إلى شمال البلاد باحثا عن العزلة قصد التعبّد. ولم يرد غير هذا من الأخبار. وإلى اليوم تزور عائلات كثيرة من العالية مقامه تبرّكا بكراماته كما اشتهر بينهم منذ أجيال.

[9] عربة تجرّها الدّواب، استعمل اللّفظ كما ينطقه التّونسيّون إلى اليوم.

[10] والعالية واحدة من مجموع 22 مدينة أندلسيّة أسّسها الموريسكيّون في تونس. وبنيت العالية على أنقاض أوزاليس الرّومانيّة الخربة حين وصلوها لاجئين. وصارت العالية مع الأندلسيين عاصمة إقليم ساحل بنزرت وهو واحد من الأقاليم الأربعة الّتي توزّع عليها الموريسكيّون في تونس

[11] أسّس الأندلسيّون الّذين وصلوا إلى تونس في 1609 وقبيلها 22 مدينة وقرية أندلسيّة تقسّم إلى أربعة أقاليم منها إقليم ساحل بنزرت وعاصمته آنذاك العالية.

[12] قُصد به وادي مجردة

[13] ڨرناطة: تنطق غرناطة باللّهجة المحلّية بقاف مجهورة نرسمها قافا بثلاث نقاط.

[14] الأمثلة كثيرة وأورد مثلا ما جاء في الإتحاف، ج2، ص 31/30: وبنوا بلدانهم المعروفة بهم مثل سليمان وبلّي ونيانو وقرنبالية وتركي والجديّدة وزغوان وطبرية وقريش الواد ومجاز الباب وتستور والسلوقيّة والعالية والقليعة.

[15] ظهرت بعض الدّراسات المتعلّقة بالعالية وبالأندلس عامّة منها دراسة أحمد السعداوي بكليّة منّوبة.

[16] يقول الأستاذ أحمد الحمروني في كتابه: 100 مدينة تونسيّة-في الصّفحتين المخصّصتين لمدينة العالية (ص 158-159): «كما لم نتمكّن من معرفة تاريخها في العهد الوسيط، وبالتالي فتاريخها الفعليّ والموثوق به يبدأ بحلول المهاجرين الأندلسيّين مع اختلاف في تاريخ وصولهم. وبناء على الوثيقة المعماريّة الوحيدة المثبتة بأعلى محراب الصّحن بجامعها يفترض دارسها عبد العزيز الدولاتي إمكانيّة قدوم أندلسيّي إلى العالية قبيل الطّرد النّهائيّ، أي قبل سنة 1609 وربّما سنة 1607.» ويضيف ما ورد في الوثيقة الثانية الّتي كتبها القسّ فرنسيسكو خيميناث الّذي زار العالية في 25 مارس 1725: «هي مكان يسكنه الأندلسيّون وبعض العرب. أسّسها العرب الأندلسيّون الّذين طردوا من إسبانيا سنة 1513 على أطلال كوتوزا القديمة حسب ما تشير إليه نقيشة أثريّة تُرى على طاحونة. تتكوّن القرية من 250 منزلا لفلاّحين، مبنيّ على الطّريقة الموريسكيّة ولا يسمح الأندلسيّون للأتراك والمرتدّين والسّودان بالسّكنى فيها».

[17] بعض المواضيع مذكورة سابقا احتجت إلى تكرارها في صورة العالية لأنّني اكتفيت بتقديم الجزء الثّاني فقط في مداخلتي بمناسبة شهر التّراث بالعالية في أفريل 2017 بالمكتبة العموميّة في أمسية بعنوان: العالية الأندلسيّة.

[18] الحادثة وقد ورد في الرّواية «خطرة «الشكارة»» في الصّفحة 95 ووصفها بالمعركة الكبرى، وقد انطلقت من خلاف بسيط. وكانت هذه الحادثة فرصة تمكّن بها بدر الدّين الحجري من التخلّص من العمل في بناء البستيون والذّهاب للبحث عن عائلته.

[19] ذكر خيمينث أنّ أهل العالية أندلسيون هاجروا من كاتالونيا، كما ذكر أنّهم ينسبون أنفسهم إلى غرناطة.

[20] الحارس التّابع لزاوية سيدي القشّاش ورافق بدر الدّين مع عائلة أحمد الجيّار إلى العالية.

نازك ضمرة

ملاحظات على المسلسلات البدوية



يتألف أي فيلم للتلفزيون أو لدور السينما من مادة وممثل وأداء وإخراج وبيئة تشمل الأدوات. وملاحظاتي هنا نابعة من كوني إنسانا أردنيا وعربيا يعتز بماضينا وتراثنا، وأحب أن يتجلى ما نعتز به من التراث، وفي الوقت نفسه المحافظة على اندفاع عجلة التطور المتسارع في جميع مناحي الحياة في بلدنا وفيما يدور حولنا من بلدان.

أتناول في هذه المقالة مرئيات إنسان يدعي أنه مثقف عن أفلام التلفزيون البدوية والمسلسلات، وذلك في مسائل مثل الأداء والوسائل والعادات والمظاهر المتوالدة أو الوافدة، وحتى تظل خيوط الزمان والمكان والإنسان مترابطة متواصلة مع ما توارثنا من الصالح في عاداتنا وتقاليدنا وتصرفاتنا ومناهجنا وأخلاقنا وقيمنا.

إذا أردنا أن نبرز تراثا سلكه من قبلنا والتصق بنا مثل ذاك التراث كعرب في حاضرتنا وباديتنا، وحافظ السابقون منا على توريثه للخلف، لأسباب أخلاقية أو دينية أو اجتماعية محببة مفيدة ومتماشية مع ما تيسر لنا من ضرورات الحياة في البادية مثلاً، فعلينا أن نكون حريصين جداً في مناولة الهدف من المسلسل التلفزيوني أو الفيلم السينمائي، هذا إذا أردنا أن ننجز عملاً يكون متقارباً جداً مع الواقع الذي نتصور زمانه في عقولنا وأقوالنا.

عناصر العمل التلفزيوني أو المسرحي أو السينمائي المقبول، التي ذكرتها في البداية، سأتناولها هنا بعد مشاهدة حلقة من مسلسل بدوي تلفزيوني على الفضائية الأردنية. لا أعرف تاريخ إنجاز المسلسل، ولكن لو قابلنا العناصر الأساسية الخمسة أعلاه لعمل تلفزيوني مقبول لوجدنا أننا أمام نقص واضح في

كل بند من تلك البنود، فالمادة نجدها مصاغة بخيال قاصر وبواقعية تبتعد عن عمق التعقيدات في الفكر البدوي الأصيل.

ما هكذا تورد الإبل، ولا تتم التسويات والتصرفات في المجتمع البدوي، ولا يحصل التواصل في البادية بمثل الطريقة المضغوطة المبتسرة المختصرة الفجة كما أرادها كاتب النص.

قد يجهل الكثيرون دقة التوازنات والحسابات في رؤية العربي البدوي الأصيل للحياة والسلوك والدواعي والنتائج. والمثال الحي الذي ما زال عادة حميدة مفيدة ومقبولة في حياتنا اليومية في الأردن هي عادة (الجاهة)، نتمسك بها وهي واحدة من حسنات التراث البدوي.

وعلى الرغم من وجود قوانين ومحاكم ومراكز أمن وحكام إداريين، إلا أن أغلب المشاكل الاجتماعية والأخلاقية في ديارنا يتم حلها بأسلوب محكم هادئ مطوّل مدروس رصين بواسطة الجاهة وكبار القوم وعقلائهم، دون حاجة للمحاكمة والمحامين والسجون والتحقيق والتعذيب وشهود الزور، أو لشهود عدول.

وقد يتصور البعض أن الأمر «مجرد فنجان قهوة» كما يدعي موتور ما، حين يفقد صوابه وتوازنه ويقول لخصمه: «كل راس مالها فنجان قهوة»، ثم يقترف جريمة لا تقف عند حدود محددة أو تنتهي بزمن محدد ولا بسجن القاتل أو تحميله الدية.

إلا أن العربي المرتبك لجريمة ما لا يسعى إلى الصلح إلا بعد أن يحسّ بوزن وأهمية المغدور وبفاعلية أهله وقدرتهم على إشفاء غليلهم، وإلا ستكون النتيجة ردا انتقاميا متكافئا، وغالباً ما يكون مضاعفًا، فيمتد النزاع إلى سنوات، يتطور إلى جلوات وتعقيدات وتدخلات شعبية وحكومية وإدارية وواسطات وخسائر مادية بغية التخفيف من هوة الخلاف، وحصر النزاع في أضيق دائرة، وحتى لا يقف المجتمع كتلاً ضد كتل، وكي لا يستشري الأخذ بالثأر.

إن تنفيذ الصلح وجبر الخواطر لا يتم بقالب جاهز وببساطة متكررة في الواقعات كلها، فلا بد من مراعاة أمور كثيرة عند الحاجة لحل الأزمة الطارئة بطريق الجاهة، كدراسة نوع الخطأ ومستواه، وشخص المجني عليه أو عليها، وعمره ومركزه الاجتماعي ومركز والديه أو من يهمهم أمره كالزوج والأخوة والأقارب، وإمكانياتهم المادية والمعنوية والوظيفية، ومصلحة الوطن والمواطن، وموقع السكن ونوعه ومستواه، وأمور كثيرة وعميقة أبعد ما أحيط

بها هنا في مقال قصير، ولكن ما قصدته، أن الهدف من الجاهة هنا هو الصلح واستغلال روح النخوة والكرم والكرامة وكلمة الشرف.

أتيت بمثال واحد من التراث العربي العريق النافع، لأثبت أن المعالجة لا تتم كما يتصور كثيرون، أي أنها مجرد فنجان قهوة، ثم قبول مفروغ منه، ثم صلح، «وعفا الله عما سلف». على العكس من ذلك، اختيار أشخاص الجاهة لا يتم حتى بتلك السهولة، ويحتاج إلى شروط كثيرة، حتى إن أعضاء الجاهة يقومون بتحركات وفحوصات وتحوّط وجسّ نبض وتحسس للمواقف التي قد يجدون أنفسهم أمامها.

لكن مسلسلاتنا التلفزيونية فقيرة في النصوص وفي عرض المشكلة وفي تطورها وتحليلها وحلولها. يقفز كاتب النص بسرعة إلى ما يريده هو نفسه لحالة الأزمة سواء بحل أو بتعقيد، وبشكل متسرع أو فج فيما يشبه بساطة الناس الساذجين. والأهم من ذلك هو بعده عن الواقع الذي كان سائداً زمن الحدث المتخيل، إن كان الموقف في ماض بعيد، ومجاف لما هو دارج ومعروف في حاضر الإنسان البدوي في العقود الأخيرة.

وأول ما يلفت النظر هو إظهار سذاجة البدوي حتى في المواقف الأخلاقية العالية كالصفات التي عرفناها أو ورثناها أو قرأنا عنها في تراثنا وتقاليدنا وتاريخنا، كالمحافظة على الشرف وإكرام الضيف وحماية المستجير والكرامة والنخوة والشهامة والتضحية من أجل الأرض والعرض والدين.

أما اختيار الممثلين فهو لا يخلو أيضا من حشر وارتجال ونقص كفاءة، وسبب ذلك قد يكون الاسترخاص وضغط التكاليف، والثقة بتسويق المنتج التلفزيوني بسهولة وفي يسر، فلماذا زيادة التكاليف والتأني في عمل التمثيل أو دقة الاختيار ما دام المنتج يعرف مسبقاً أن مسلسله سيعرض على شاشة التلفزيون، وسيتقاضى عنه مبلغاً مجزياً؟

أنا واثق أن البدوي الحقيقي سيسخر من تصرفات بعض الممثلين والممثلات حتى لو كان أحدهم يقوم بدور بطولي أو شريف أو أخلاقي أو وطني. العربي الحقيقي وأولهم البدوي يعرف الزيف والكفاءة حتى لو كان غير متعلم ولا مثقف، حين يشاهد دقائق معدودات من المسلسل التلفزيوني، لأن الكفاءة وصدق الأداء ودقته تدرك بالسليقة من قبل كل متمعن متأمل عارف بواقعه الذي يحياه.

ترى مثلا تصرفا طائشا متسرّعا من ممثل يقوم بدور زوج أو شيخ أو وجيه، بينما في الواقع لا يمكن أن يقوم أي بدوي طبيعي بمثل ذلك التصرف

الفج. وليزيد المخرج من إغواء المشاهد، قد يدخل موقفا مثيرا للمشاهد، كجعل رجل بدوي يلتقي امرأة بدوية على طريقة (قدرة قادر) في بيداء أو منقطع من الأرض، فيطري عليها الرجل العابر ماشياً أو ممتطياً صهوة جواده الهزيل، ويسمعها كلمات مدح يستمزج شخصيتها، ثم يستهبل عليها، أو يستهبلها بتساؤلات ساذجة أيضاً ليعرف بعض الأسرار عن أهلها أو حياتها أو عشيرتها أو شيخ العشيرة.

وسرعان ما تتجاوب الفتاة (الممثلة) مع الرجل العابر (البدوي مثلها عابر السبيل) فتظهر من الكرم الزائد والنخوة والتعاون والتقارب، وكأن تلك الأنثى أرض عطشى لم تر ماء منذ عقود، أو أنها امرأة ساذجة أو شبقة أو مستوحدة لم تلتق برجل لسنوات طويلة، ومقابل كلمات مدح بسيطة، تقدم له معلومات سريعة مفصلة ومجانية عن أهلها وعشيرتها وعن الشخص المطلوب رأسه (مثلاً).

وقد تقدم أيضا قطرات الماء القليلة التي معها لعابر السبيل ذاك، ناسية (أو هكذا أراد المخرج لها) ناسية أنها بحاجة لما معها من ماء لأنها حسب ما يبدو في المسلسل في أرض معزولة بعيدة عن خيام أهلها.

ويتكرر في معظم المسلسلات التي شاهدت بعضاً منها ظهور المرأة (البدوية) وحيدة بعيدة عن أهلها وعن أي حياة واقعية أو تقارب الواقع، ونشاهد أرضا فيها بعض الوعورة أو يبابا فيه بعض من نبات نادر، مع غنيمات أو شياه وأتان زرعت في الموقع عنوة.

لماذا تكون المرأة في مكان منعزل كهذا؟ قد يقول قائل إن المخرج أراد لها أن تكون في هذا المكان المنعزل، ولكن حتى لو كانت ترعى دواب أسرتها، فهناك ظروف خاصة لمثل هذه الحاجة، وليست كل بدوية ترعى إبل أهلها أو حلالهم، وهذا تعسف يؤثر سلباً على نفسية المشاهد وذوقه ويستهزئ بعقل المرأة البدوية وبفطرتها الذكية، وحتى بالبداوة على وجه الخصوص، وبمزايا تلك العشيرة أو العائلة البدوية.

وقد يشكل ذلك انطباعاً مخالفا لما ظنه المؤلف أو أراده المخرج والممثل لدى من لا يعرفون البدو والبادية، أو لأولئك الذي أبعدتهم ظروف المعيشة والتطور الحضاري عن التماس بالحياة البدوية، فيظنون أن البدو مخلوقات تعيش منعزلة في البوادي، لا يعنيها من الحياة إلا لقمة العيش أو الرعي أو الانتقام أو الجلوس الكسول في الخيام والثرثرة. والمرأة البدوية إما مظلومة أو مستضعفة أو راعية أو شيخة لها نفوذ أو بلا نفوذ.

تلك مواقف يخلقها المؤلف تعسفاً، كإظهار حياة البادية أنها تسير على وتيرة واحدة وبنمط متكرر دون قواعد عريقة مدروسة بعناية ومجربة، وتصلح لكل المواقف.

ومع أن بعض تلك التصرفات تتطلبها طبيعة المسلسل، إلا أنها تخلو من اللمسة الحية، أو دون مقدمات، ووسيلة للوصول للنتيجة النهائية للفكرة التي في رأس كاتب النص أو المخرج أو المنتج، مما يوحي لنا ثانية بأن حياة البدوي تعتمد على المصادفة أو المواجهة بنمط متكرر أو بالمؤامرات أو بإساءة استغلال روح النخوة والكرم والشهامة.

بعبارة أخرى، تصور الحياة البدوية بأساليب بعيدة عن التعمق، وتقتصد في الزمن والإنفاق وحسن الاختيار للمفردة وللموقف وللممثل وللمكان والديكور. وقد يكون فعل ذلك لكي يتمكن صاحب المشروع ذي الهدف المادي فقط أن يبذل مجهودات علائقية خاصة ليتمكن من تسويق (أو تسليك) عمله، مختصراً كل ما يزيد من تكاليف الإنتاج والإخراج، وأسباب ذلك معروفة وخارجة عن مجال هذه السطور.

ومن المشاهد التي تثير الاستنكار فتتعلق بديكور وأجواء المسلسل، فمثلاً تنتقل الكاميرا إلى (الشّقّ) أو الخيمة المشرعة على أوتاد أربعة. ولو هبت عليها ريح خفيفة لحلقت عاليا وهوت على بعد مئات الأمتار. والغريب أن الفارس البدوي (الخيال على ظهر الفرس) يجد رجلين أو ثلاثة في استقباله أمام الخيمة، بتصنع وطيش وزيف وتبسيط بدرجة لا تليق بأهلنا الأصليين وأجدادنا وتراثنا العريق.

لا يوجد حضري عربي في كل بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية ليس له جذور بدوية، فكلنا من أصل بدوي، وإذا أردنا أن نعيد سيرة أجدادنا وسلفنا في مسلسلات تلفزيونية لنورثها لخلفنا، أو لنحافظ على ما يصلح من تراث البداوة العربية، فلتكن بشكل لائق، وليس لمجرد إخراج عمل تلفزيوني بدوي، فنصف أنفسنا بعده قائلين إننا نحافظ على إحياء تراثنا البدوي في الأردن أكثر من غيرنا من البلاد العربية.

الأردن يسبق أو يسابق معظم الأقاليم العربية في امتلاك مختلف ضروريات الحياة اليومية والتقنية والاقتصادية والمعاصرة، وكل البدو في الأردن، إن كان هناك ما زال في بلادنا بدو حقيقيون، يعرفون ماضيهم وحاضرهم، ويتعايشون مع كل جديد، بل وبعض البدو يسبقون أهل الحضر في متابعة وسائل الحضارة

علماً وأدوات، ومنهم وجهاء في البلد ومثقفون وأدباء، ويتبوؤون مراكز رسمية وحكومية وشعبية واقتصادية عالية.

لا يجوز أن نقلل من الشأن البدوي بتمثيليات رديئة تجعل الغير ينظر لنا ولبدونا بأننا شعب من السذج، فنرسخ ما كتبه عنا لورنس أو جون باجوت كلوب أو المستشرقون الذين زاروا بوادي العرب في الماضي، ونضع تصورات أولئك الغرباء عنا على شكل حركات ومفردات وتصرفات ومشاهد عابرة من أقوالهم بين ثنايا مسلسلات ضعيفة، بعيدة عن الواقع الذي يعيشه الإنسان البدوي ماضياً وحاضرا.

وهكذا تكون النتيجة من عمل المسلسلات البدوية عكسية، فتسيء للبدو، وللجذور الذين نشأوا فيها، فهذا الصور النمطية لا تنطبق حتى على أفقر وأبسط بدوي وأكثرهم عزلة وبعداً عن المدينة والحضارة.

أخيرا أتمنى عدم فصل كل من يدعي البداوة عن غالبية المجتمع، فنخلق جوا شبه عنصري يمكن أن يؤدي إلى نوع من المواجهة بين أبناء الشعب في البلد الواحد.

منال الكندي

مواهب الأطفال بين الواقع والاستغلال

ظهرت منذ سنوات نسخ عربية من برامج أجنبية لاكتشاف المواهب، وخاصة في مجال الغناء. للوهلة الأولى تبدو هذه البرامج فرصة عظيمة لمن يمتلك موهبة ويريد لها أن تُعرف وتشتهر. ولكن هذه البرامج في الواقع تقوم باستغلال المشاركات والمشاركين، وتجمع ثروة على حسابهم، فهي بالتالي لا تخدم أصحاب المواهب بقدر ما تخدم منظمي هذه البرامج.

في كل موسم تظهر مواهب يتم اختبارها واختيارها من لجنة تقبل بعض المشاركات والمشاركين، ثم يتم فرزهم بعد وضعهم في منافسة شرسة وضغط نفسي وبيئة مختلفة تماما عن تلك التي أتى منها صاحب الموهبة. ويتم هذا لفترة محددة يستفيد منها ظاهريا صاحب الموهبة وأسرته من أضواء وشهرة مؤقتة تؤثر سلبا عليهم بعد توقفها وانتهاء ذلك العالم من الأضواء.

أثناء عملية الفرز، يتم إقصاء أصوات على أساس مدى تصويت الجمهور لها، ومن خلال عمليات التصويت تستفيد شركات الاتصالات وتلك التي تشرف على تنظيم البرنامج. أما صاحب الموهبة فنصيبه من المشاركة في البرنامج بعض الشهرة وتغيير نمط حياته تغييرا سلبيا بعد خروجه من ذلك العالم. أما الفائزون في المسابقات فيتم وضعهم تحت الأضواء لفترة معينة، ويوقعون عقودا احتكارية، تشكل نوعا آخر من الاستعباد.

هناك الكثير من المواهب التي يمتلكها أطفال العالم في كل مكان، بعضهم قد يكون من أسر فقيرة أو متوسطة الحال أو ثرية. تستهدف الشركات والمنظمات التي تعمل على تبني المواهب العائلات الفقيرة والمتوسطة، لأنه من السهل إغراؤها ببريق الشهرة والمال ودخول عالم ترى دخوله ضربة حظ، وحلما يتحقق وسيؤدي إلى انتقالها من الفقر إلى الثراء. ولكنها سرعان ما يصدمها الواقع الاستغلالي لعالم لا يفهم سوى لغة المال وإن غلفوها بلمسة إنسانية.

في الآونة الأخيرة، ظهرت في اليمن موهبة صبي يبيع قوارير الماء في



شوارع صنعاء (عمرو أحمد). وقد اشتهر بعد انتشار فيديوهات له وهو يغني بصوته الشجي لكبار الفنانين اليمنيين، فأصبح ظاهرة تتناقلها وسائل الإعلام. وأبدت شركات استعدادها لتبني موهبته، ولكن وفق شروط مجحفة أولها تبنيه بعيدا عن أسرته الفقيرة التي تعتمد على الطفل في المعيشة، مع أن عمل الأطفال محرم وفق القانون الدولي.

ومن غير المفهوم مبررات قيام أحد بتبني موهبة الطفل في الغناء بعيدا عن أسرته. والسؤال الذي يطرح نفسه: هل ستقوم جهة التبني بتدريسه وتكفل تعليمه، أم فقط تريد تبني صوته ليكون المادة الذهبية التي ستدر الأموال على الجهة التي تتبناه والتي سوف تستغني عنه عندما يصبح غير مفيد لها في جني المال؟

وثمة طفل يمني آخر موهبته العزف على الجيتار. تواصلت والدته مع منظمات دولية من أجل أن تتبنى موهبة ابنها، فالوضع في اليمن مأساوي بسبب الحرب. وافقت يونيسكو على أخذه مع والدته إلى إيطاليا ليعزف مقطوعة موسيقية عالمية لمدة ثلاث دقائق في حفل أوبرا. أثناء وجودهما في إيطاليا، طلبت الأم اللجوء، وكانت النتيجة وضعهما في مخيمات مخصصة لطالبي اللجوء، ونقلا بعد ذلك إلى مخيمات اللجوء في ألمانيا. ولا يزالان في انتظار الإجراءات القانونية التي تؤدي إلى تحسين أوضاعهما. هذه الحالة تظهر أن الدافع لم يكن الحرص على موهبة الابن، بل الحصول على فرصة للخروج من اليمن للاستقرار في بلد آخر.

هناك الكثير من المواهب، وتحتاج للبحث عنها لتشجيعها وتطويرها. وهذا الأمر سيحتاج إلى مال، ولكن المجتمع سوف يستفيد من هذه المواهب بدل أن تهاجر إلى دول أخرى. وبالنسبة للبرامج التي بدأت بها الحديث، فهي تحاصر المواهب بين المنافسة والتصويت، والضغوط النفسية والتأثيرات السلبية المختلفة. وثمة رسالة مبطنة مفادها أن الوصول للشهرة والأضواء والأموال لا يحتاج سوى برنامج-شركة تعتمد على العقود الاحتكارية لتضع صاحب الموهبة على طريق الشهرة والنجاح. ولكن مقابل كل من يتم اختياره هناك عدد لا بأس به يستبعد، ويكون من نتائج ذلك شعور بالفشل والتوتر والضياع رغم أن الكثير من المستبعدين ليسوا أقل موهبة. والرابح دائما هو الشركات ووسائل الإعلام التي تجني الكثير من المال.

زهرة زيراوي: عامان على الرحيل
لقاء وشهادات الصديقات والأصدقاء

إحياء للذكرى السنوية الثانية لرحيل الكاتبة والفنانة التشكيلية المغربية، زهرة زيراوي، نظمت صديقتها د. لطيفة حليم يوم الخميس، 24 تشرين الأول (أكتوبر) 2019، لقاء في بيتها حضره صديقات الكاتبتين، وتخلله قراءة شهادات كتبها صديقات وأصدقاء الأديبة الراحلة، من بينهم د. عبد الله الفيفي، الكاتب والناقد السعودي، وأفنانين كبة، الفنانة التشكيلية العراقية، وعدلي الهواري، رئيس تحرير مجلة «عود الند» الثقافية. فيما يلي مقتطفات من الشهادات. انظر/ي أيضا شهادة د. حسن الغشتول، المنشورة كنص مستقل في هذا العدد.



د. عبد الله الفيفي

«لكم هي جديرة بالتكريم الوطني على مستوى المملكة المغربيّة، بل الوطن العربي، الذي بقيت تحمل همه، وتنذر عمرها في سبيل كلمته، حتى تخطته بعطائها إلى أقطار العالم التي ُنطق فيها الحرف العربي، مستثمرة الثورة التواصلية المعاصرة لنسج شبكة ثقافية عالمية من الترابط بين المثقفين العرب على اختلاف حقولهم وبلدانهم».

أفانين كبة

«هنالك أشخاص يشغلون أماكن في قلوبنا محجوزة لهم منذ زمن بعيد، وكأن أرواحنا كانت قد تعارفت سابقا من قبل أن تأتي إلى هذه الحياة. كنا نتبادل الخواطر عِبر البريد الإلكتروني ونتقاسم رغيف الخبز الأدبي والفني رغم بُعد المسافات التي تفصل بيننا، وكانت تجتمع بألفة ومَودّة، هذا لأن الأرواح تتآلف

وتقترب مع روح من يفهمها ويغذيها. كنت زهرة عطرها فواح حتى في موسم الجفاف، رحلت عنّا وبقيت بصماتك وعطرك النادر يحتل أعماق أرواحنا».

عدلي الهواري

«بعد تعارفنا في 2010، زودتني زهرة بنسخة رقمية من مؤلفاتها، ومنها يتضح عمق ثقافتها وتنوع مواهبها. وفي عام 2016، عندما صدرت روايتها «الفردوس البعيد»، أرسلت لي نسخة موقعة بتاريخ 2016/3/8. للأسف الشديد لم ألتق زهرة شخصيا، مع أني كنت أود ذلك، وكنت أنتظر الفرصة لزيارتها أثناء وجودها في بلجيكا لسهولة السفر بين دول الاتحاد الأوروبي، فهي بالنسبة إليّ لم تكن مجرد كاتبة تشارك في عود الند، بل قامة إنسانية وأخلاقية وفنية وثقافية كبيرة. وكانت في الوقت نفسه قمة في التواضع والتعامل الراقي».



ذكرى وفاة زهرتنا بتاريخ 2017/10/24.

مونتريال. غرفة صديقات أجمل العمر.

د حسن الغشتول

في ذكرى رحيل زهرة زيراوي

شهادة في حق الأديبة المبدعة الخالدة زهرة زيراوي رحمها الله



يطغى علينا الأسى بعد غيابك عنا أيتها الغالية. نحنُّ إليك، فنعيد قراءة ما لاح في علياء خيالك النقي من رسم ووسم. نوقن بما حدست وتفرست. نوقن بما شهدت وعرفت. نقرأ ما كتبت ذات يوم عن حنينك إلى فردوسك البعيد. لما رأيت الدرب دوني، أيقنت أني أشد الرحال إلى غابات بعيدة المنال.

لم نتجرع مرارة هذه الكلمات إلا بعد رحيلك عنا. فكم تقسو الدنيا بفراقك أيتها الأم العظيمة! تذهبين وعلى جبينك حرف يهرب من زيف السنين. تذهبين فيساقط جسد الياسمين، فلا يسندني غير دمع ومغناة في فم الريح. أصيح إليها بجرحي، بشرخ في أعماقي. أفشي لنجمة وحيدة سر المتاهات. هي سليلة أنجم خوالد اللألاء. هي التي تعيد للجسد روحه، كالجوهر الوضاء، تسري في الجذور الدفينة. تتلمس مزلاج الوطن.

أيها النجم المسجى في سراك ائتلاق ينجذب الوله الصدوق به. ينجذب من وريده لا من يده. عقيدتك شيمة علوية. ذكراك يا زهرة تمتد حلما في الأرض. يكبر الحلم تتدلى جدائله. تسكن أنفسا مَشُوقَة بوميض وهاج تلتهب فتائله. لم يعد الجسد يعبأ بآثار السهم الذي جاب خرائطه. يَبْرَأ من أعراضه الدنية كلها.

فُرشاتك كما علمت اكتهلت يا زهراء. فُرشاتك تصوغ ضرباتها ظلمة المساء وتمنح الهواء لونه القرمزي. طيبتك التي لا حد لها. سخاء قلبك،

ضميرك الصاحي أبدا. إنسانيتك المتأصلة. كلها خلال لا يخترمها الفناء ولا تنسيها بعدك لجة الليل الطويل.

ذكراك صارت ترتيلة تلازمني مذ رحلت. العربات الخفية في المتاهات البعيدة والمدينة من دونك موحشة، وأنت المنار. المدينة من دونك صمت موجع. عساك ترجعين أيتها الخالدة في عالم الصفاء. عساك تسكنين في عروقنا وتزهرين في حدائق الفؤاد.

تماهيت بعلياء الكون إذ ناداك الفردوس هزارا يصدح للحياة. مضيت في الغياهب تشقين دجاها. تسائلين السحب والأنواء. وحدك في عوالم السدم تتطلعين إلى خطف برق بأجنحة تخفق رؤاها مثل رؤى الخالدين. بأشرعة تخوض لججا تبدد العتمات، تصافي موجا يغسل العثرات.

النور أنت والنَّوْرُ أنت. الغصن الأبدي الذي استوى في أعماق القلب سيدة المقام: كل الغيمات تسأل عنك، وغصنك يعد لبرق الغمام، يوقن بأنك تنزلين ماء نقيا من ذات سماء. تأتين في المطر لتخضل الحياة وأنت ترقبينها في عز وخيلاء.

د جليلة الخليع

رسالة إلى أبي العلاء



وأظل دائما أختبر إدراكي، وتكون الأشياء بشكلها السطحي واضحة جلية، حتى إذا ما مرت ريح عابرة بقربها، حركت غطاءها فأسفرت عن وجها، وكم هي عديدة هذه الوجوه المتنافرة .

أستجدي كل معلوماتي السابقة ونتائجي الحالية، والكل في كفة وأنا أفقد توازني عند اهتزاز مؤشر الحيرة . أي يقين سيلبسني والأحوال دائما في تحديث، وأنا ضمير غائب يقتات مما هو قريب ولا يغوص في العمق، ليكون النص وهميا بجمل سطحية.

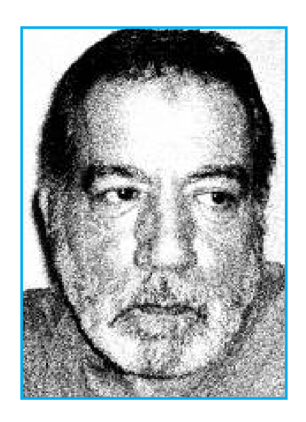
أجدني في مهب الريح، أنكمش كقطعة ثوب تخفي ثقوبها حتى لا تفشي عيوبها التي خلفتها السذاجة. كل موقف يجعلني أطلب ألما يقتل ألمي الحالي، حتى تزداد مناعتي وتنهار بداخلي ذرات الصدمة.

واهن هو جسد الحقيقة، ومتغطرس هو جسد الزيف، أولي وجهي إلى اللاجهة حتى لا أدرك فشلي، حتى لا يظل الزفير عالقا بأنفاسي والشهيق معدما. أقف عند أطراف البوح ليكون الفراق بتلاشي اليقين ويظل المحال صلة الوصل التي تجمعنا..

إذا قلتُ المحالَ رفعت صوتي == وإن قلت اليقين أطلتُ همسي

زكي شيرخان

في محطة قطار



عند الطرف الأيمن من المصطبة الخشبية جلس، لاصقا رجليه ببعضهما، داحسا كفيه بينهما، حانيا جذعه، ساندا ذقنه بصدره. غطى رأسه بقلنسوة بلوزته عديمة الأكمام. بدا بجسمه الرشيق، وعضلات ساعده وزنده في عز شبابه. الطرف الأيسر تشغله فتاة أنيقة الملبس، بشعر كستنائي تهفهفه الريح على جانبي وجهها. تضع على عينيها نظارة كبيرة معتمة.

= عفوا، هل أنت نائم؟

أجابها بالنفي بما يشبه الهمهمة دون أن يرفع رأسه.

= كم الساعة الآن؟

= لا تتوقعي أن تعطيك الساعة المعلّقة أمامك الوقت الصحيح. هي إحدى ساعات جنون دالي.

= تقصد سلفادور دالي في لوحته المشهورة «إصرار الذاكرة»، أليس هذا اسمها؟

رفع رأسه، حرر كفيه من محبسهما، دفع رأسه إلى الوراء فانحسرت القلنسوة. أزاح خصلات شعره الطويل عن عينيه، ودفع بها نحو الخلف. استدار نحوها.

= يا إلهي! كم جميلة أنتِ؟ حسنا سأُعينكِ على معرفة الوقت، فلم أكن أعرف أنك عمياء.

= لستُ عمياء.

= لماذا هذه النظارات؟ لا بد وأنك تغطين عيبا لا يناسب جمال وجهك.

= واضح أنك جريء أكثر مما يجب، فهل أنت كذلك، أم ترى هي انعكاس لحالة نفسية؟

= لم تسألين عن الوقت؟
= أظن أن القطار قد تأخر.
= أي قطار؟ حسنا. الذي تنتظرينه لن يأتي هذا اليوم. ألغيت كل رحلات اليوم، وربما غدا، لا أدري. ألا ترين أن لا أحد في المحطة غيرنا.
= لِمَ؟
= هناك احتمالات كثيرة. ربما إضراب عمال السكك؛ صيانة؛ عمل تخريبي؛ المهم أن الرحلات ألغيت. أطمئنك، سيعيدون لك ثمن التذكرة، ومعها تعويض ضرر.
= إذن عليّ أن أغادر. ما بقاؤكَ، مع الإلغاء التام؟
= أنا جريء، وأنت فضولية تسألين عن أشياء لا تعنيك، مع هذا سأجيبك. لست مسافرا. اعتدت من سنوات، وفي أية مدينة أكون، أن أجلس في محطة القطار أراقب المسافرين في غَدَواتهم ورَوْحاتهم. لماذا أفعل ذلك؟ لن أجيبك، لستُ مجبرا.
نهض متجها نحوها. عندما واجهها مد يده ونزع نظاراتها. بصوت مرتفع:
= يا إلهي! كم جميلة عيناك، لم تخفيهما؟
نهضت من مكانها، وبلهجة صارمة:
= إن كنتُ قد سكتُ عن جرأتك، فلن أسكت عن وقاحتك.
= ماذا ستفعلين، ستضربينني؟ إن فعلت فلن أضمن لك ردة فعلي.
= فعلا، لا أحد يتوقع ردة فعل مجنون. الأفضل أن أغادر.
= أولا، يحب عليك أن تتأكدي إن كنتُ مجنونا أم لا. ثانيا، عندي مقترح. لديك وقت لن تدري ما تفعلين به. وقت كان مخصصا للرحلة، لم لا تستغلينه في الحديث مع شخص تعتبرينه مجنونا، وغيرك يعتبره غريب الأطوار. صدقيني، ستكون تجربة رائعة. أؤكد لك أنها ستكون تجربة غير قابلة للنسيان بسهولة. اجلسي، واسترخي. لستُ شريرا، ولا أنوي أن الحق بك أو بغيرك أذى. وإذا لم ترغبي، فأنت حرة يمكنك المغادرة. أما أنا فباقٍ.
وبما يشبه الهمس، حدّث نفسه، لكنها سمعته:
= أيها الغبي، لم تطلبُ منها البقاء؟ لستَ بحاجة لها. جميلة جدا؟ ومتى أغراك الجمال؟
عاد إلى مقعده، جالسا جلسته الأولى. نهضت ساحبة حقيبتها خلفها. بعدما تعدته بعدة خطوات، توقفت.
= أتجيدين الرقص، رقصة التانجو تحديدا؟

سمع بوضوح ضحكتها المكتومة، فرفع رأسه.
= ها قد بدأ تفاهمنا، أو ربما اتفاقنا.
= حول ماذا؟
= ليس مهما أن يتفاهم الناس حول شيء محدد، أو يتفقوا. لا فرق كبير. حتى عدم الوصول لتفاهم مشترك هو تفاهم بحد ذاته. وعدم الاتفاق هو الآخر اتفاق على عدم الاتفاق. لا اعرف مدى ذكائك، لذا من الصعوبة أن أحكم إن فهمت كلامي. لا تترددي بين البقاء أو الذهاب. كوني شجاعة واتخذي قرارك. إياك وأن تُحكّمي عقلك. الحياة معقدة بما فيه الكفاية.
= لم أصادف مجنونا مثلك.
= كم مجنونا عرفت في حياتك؟ لا يهم. أدعوك للرقص.
= أين؟
= هنا. لا أحد غيرنا حتى يظن أننا مجانين. حتى لو ظنّوا ما يظنّون. ألم يصبح العالم كله جنونا؟ فلنمارس الجنون مثل الآخرين.
ضحكتْ هذه المرة بصوت عالٍ قبل أن تعود لتجلس.
= ما الذي تريد الوصول إليه؟
= ليس هناك من شيء محدد. فقط أردت أن أجرب ما يمارسه الجميع تحت يافطة عريضة أسموها الحرية الشخصية.
= ولم اخترتني أنا؟
= لأني لم أجد غيرك هنا. ما طلبته مجرد عرض لك أن تقبليه أو ترفضيه.
= وماذا بعد الرقصة؟
= يذهب كل منا في طريقه. إلى عالمه الذي لم يعد أحد يفهمه، حياته التي لم تعد تعني شيئا، عبوديته.
= عبوديته؟
= نعم، أو تظنين أنك حرة، أنا حر، الناس؟
مطّت شفتها استغرابا، عاقدة ما بين حاجبيها.
= ألسنا جميعا عبيد المنظومة التي تتحكم بنا؟ ما أغبانا نحن البشر. الحرية الشخصية التي نتشدق بها ما هي إلا الفتات الذي رمته المنظومة لنا. غبي من يظن أن النضال الذي خاضته الأجيال أوصلها لكسب حريتها.
= إنك لست مجنونا فقط، ولكنك متشائم لحد اليأس.
= دعينا من الجنون والتشاؤم، هل ستؤدين معي رقصة التانجو الأولى؟
= هذا يعني أن ستكون بعدها رقصات.

= إن آمنتِ أننا عبيد.
= وإن لم؟
= هذا شأنك، فلا سلطان لي عليك.
= حسنا، سأرقص معك ولكن ليس هنا. يمكننا الذهاب إلى مرقص.
= لا. هناك الجميع يستطيع أن يمارس الرقص، لكن هنا فقط الشجعان الذين يتحدون كل شيء، الذين يمارسون حريتهم الشخصية الكاذبة.
= قصدكَ المجانين.
= لا أهمية للأسماء، المهم الأفعال.
نهض. غطى رأسه بالقلنسوة.
= ذاهب أنا، هل ترافقيني؟
= الى أين؟
= حيث أمارس الحياة.
لم ينتظر جوابا. دس يديه في جيبي بنطاله. ودون أن يقول شيئا، سار. ظلت واجمة على مقعدها تنظر إليه وهو يبتعد. لم تستطع أن تحدد ما يعتلج داخلها، ولم تستطع أن تحدد موقفها من هذا الكائن، ولم تكن واثقة من أنها فهمت ما جرى.

فنار عبد الغني

في عيادة طبيب يُضحك



أخذ يصوب نظراته الحادّة على تفاصيل وجهي بعينين متحجرتين غائرتين خلف نظارة طبية سميكة. كانت ملامح وجهه متشنجة، وقد ألقت الإضاءة الضعيفة في الغرفة عليها شيئا كبيرا من الغموض. وأعتقد أنه تعمد أن يجعل الحجرة نصف معتمة.

كان يحاول إثارة قلقي من خلال التحديق الطويل في قسمات وجهي. استغرق فحصه وقتا طويلا وهو لا يزال يحافظ على نفس الهيئة. قاس ضغطي وأنصت إلى نبضي في لمح البصر ولم يتفوه بربع حرف.

لم يكن هذا الطبيب معروفا رغم تقدمه في السن ورغم وجود عيادته على طابق أرضي في بناء قديم يشرف على شارع رئيسي. كانت عيادته عبارة عن حجرة واحدة، هي جزء من منزله. وقد عرفت ذلك من تصرف السيدة التي صحبتني إلى عيادته، لأننا عندما وصلنا إلى العيادة، وجدناها مغلقة.

عندئذ نزلت نوال، السيدة التي كنت برفقتها، الدرج الصغير واتجهت إلى درج آخر لنفس الطابق وضغطت على جرس البيت ثمّ عادت إليّ مجددا. وماهي إلا ثوان حتى فتحت لنا خادمة المنزل باب العيادة من الداخل ودعتنا إلى الدخول وانصرفت.

وفي الانتظار، أخذت أصغي إلى أحاديث نوال التي كانت تدور حول كفاءة هذا الطبيب الذي استطاع إنقاذ طفلها من الهلاك، والذي استطاع إدخال السعادة إلى بيتها. توقفت عن الكلام لبرهة وأخذت نفسا عميقا وابتسمت ملء وجهها وتابعت كلامها حول أدوية الطبيب الباهظة الثمن.

كنت أكن لنوال الكثير من المحبة والتقدير، وكنت متعاطفة معها إلى

أقصى حد. كانت امرأة مكافحة وربة منزل وأم لخمسة أطفال. لا تعرف شيئا عن القراءة والكتابة، ورغم ذلك كانت تدير محلا صغيرا تبيع فيه القرطاسية وألعاب الأطفال خلال النهار، ثم يستلم زوجها العمل في المحل بعد العصر. وكنتُ زبونتها الدائمة. وهي كانت تطلب مني أن أساعدها في الحسابات.

كانت نوال امرأة مذهلة، أنيقة وكريمة ورفيعة الذوق رغم بساطتها وفقرها. وكنت استمتع لأحاديثها وأشعر أنها أختي الكبرى. لقد تمكنت من إقناعي بزيارة هذا الطبيب غير المعروف بالنسبة لي، وذلك بعد سماعها لسعالي الطويل وصوتي الخافت.

كان الطبيب طويل القامة وهزيلا، ضامر الوجه والعضلات. بعد أن أنهى فحصه، توارى خلف مكتبه الخشبي، المحاط بعدد من الشهادات المحتجزة داخل أطر ذهبية، شهادات تراها في بعض العيادات، وتناول قلما عليه علامة إحدى شركات الأدوية وسحب دفتره الصغير. لاحظت أن على يده اليمنى تشوها واضحا يبدو كأنه حرق قديم.

سألني عن اسمي. وما أن سمع صوتي حتى خرج من هدوئه، وهتف كمن عثر على خاتم في صحراء:

= هذا هو السبب، إنه اسمك. لا يليق بحياتك، لا يتناسب مع حالتك الصحية.
= اسمي! اسمي يعني الضوء.
= عليك بتغيير اسمك.

قالها بشكل حاسم، ثم كتب على الورقة البيضاء ثلاثة أصناف من الأدوية من بينها فيتامين د. تضاعفت دهشتي وسألته:

= إذا كنا نحن سكان حوض البحر المتوسط علينا شرب فيتامين د، فكيف يعيش سكان الأسكيمو منذ آلاف السنين دون تناول هذا الفيتامين؟

قال غاضبا: «لا دخل لك بهم».

شدت نوال على ذراعي واقتادتني إلى الخارج بعد أن تقاضى الطبيب أجرا مرتفعا بعض الشيء.

بعد أن غادرنا العيادة، اقترحت نوال أن نعود إلى حيّنا مشيا على الأقدام، ورحبت بفكرتها ومشينا نصف ساعة تقريبا أمضيناها بمرح حتى بلغنا الحي وافترقنا.

نوال عادت لبيتها، وأنا توجهت إلى صيدلية جار لي وناولته الوصفة،

فما كان منه إلا أن فتح عينيه على آخرهما، وشهق ثم بلع ريقه. بعدها ناولني الأدوية التي كانت بالفعل باهظة الثمن.

كان التعب قد نال مني فتوجهت إلى النوم مباشرة وابتلعت قرصا واحدا من أحد الأدوية التي ابتعتها. وغرقت في النوم. استيقظت فجرا كعادتي في الموعد ذاته ودون منبه. وتناولت الدواء الذي ابتلعت قرصا منه قبل النوم، فإذا هو مضاد للاكتئاب.

= يا إلهي! هل يعتقد هذا الطبيب أنني أعيش في السويد مثلا؟

الدواء الآخر مطهر للحلق يحتوي على نسبة عالية من الكورتيزون. أما الأقراص الأخيرة فهي الفيتامين د ومن العيار الثقيل.

عدت إلى الصيدلي صباحا وناولته الأدوية وطلبت منه أن يهبها لمريض آخر يحتاجها. عند ذلك ابتسم الصيدلي ولم يعلق على الأمر.

ابتعت كيسا صغيرا من الزنجبيل الخالي من السكر من عند العطار، وواظبت على التهام الزنجبيل حتى اختفت آثار الإنفلونزا عندي.

كانت نوال قد لاحظت التحسن الواضح في صحتي وكانت تهمس لي كلما رأتني:

= ألم أقل لك إنه طبيب ماهر. هو الذي جعلني أضحك من قلبي وأنام نوما طويلا حتى الصباح.

وظلت تذكرني بزيارتنا للطبيب من حين لآخر وهي تضحك.

بعد تلك الحادثة، أصيب نوال بأمراض غامضة في الكبد والكلى والبنكرياس، ورقدت في بيتها طريحة الفراش، وقد قمت بزيارتها خمس أو ست مرات.

كنت ألاحظ تدهور صحتها. ولم يعرف الأطباء علتها، أو أنهم علموا لكنهم لم يخبروها بالحقيقة. ورغم ذلك بقيت بشوشة الوجه وتضحك ما وسعها الضحك.

في زيارتي الأخيرة لها قالت لي وهي تضحك وقد تدلت خصلات من شعرها الناعم الطويل الفاحم السواد على جانبي مخدتها:

= لقد أصبت أخيرا بداء السكري. هو المرض الوحيد الذي أعلم أني أعاني منه، أما الأمراض الأخرى فلا أعرف ما هي.

ماذا كنت سأقول لها مثلا؟ هل ارتفاع معدل الفيتامين د يسبب فشلا كلويا أم غير ذلك؟ لم أستطع قول أي شيء لها على الإطلاق.
تابعت تقول:

= بعد ثلاث سنوات من رقودي في الفراش، أصابني داء السكري، كان كل طعامي السمك المشوي والعسل، الآن أصبح كل طعامي السمك.

وأخرجت علبة السجائر من تحت المخدة وأشعلت سيجارة وضحكت وهي تقول: «السمك وهذه كل ما أضعه في فمي».

في عزائها، أخبرتني ابنتها الكبرى ذات السبعة عشر ربيعا أن الأمراض التي فتكت بحياة أمها كانت بسبب الأدوية التي كانت تتناولها. لقد قرأت الابنة النشرات المرفقة بالأدوية وكانت تحتوي على تحذيرات وإرشادات تفيد بأن هذه الأدوية قد تسبب تلفا واضطرابات في عمل الكبد والكلى.

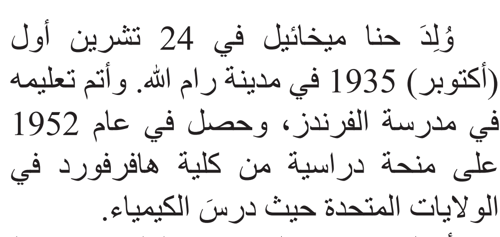
إصدارات جديدة: جهان حلو

غُيب فازداد حضورا

أقيم يوم الثلاثاء، 19 تشرين الثاني (نوفمبر) 2019، حفل لإطلاق كتاب يوثق حياة ومسيرة المناضل الفلسطيني، د. حنا ميخائيل، الشهير بأبي عمر. يضم الكتاب الذي أعدته، رفيقته المناضلة جهان حلو، ما أمكن جمعه من إنتاج أبو عمر الفكري، وذكريات من عرفوه أيام دراسته وعمله في الولايات المتحدة الأميركية، ومن رافقه في رحلة النضال بعد التحاقه بالثورة الفلسطينية عام 1969. قدم للكتاب د. شريف كناعنة، أستاذ علم الاجتماع والباحث الفلسطيني في التراث. الناشر: الدار الأهلية، عمّان، 2019.

أقيم الحفل في متحف محمود درويش في رام الله، وشارك في تنظيمه مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ومعهد إبراهيم أبو لغد (جامعة بير زيت)، ومتحف محمود درويش، وتحدث فيه كل من لورد حبش ومهند عبد الحميد، ومعدة الكتاب.





وُلِدَ حنا ميخائيل في 24 تشرين أول (أكتوبر) 1935 في مدينة رام الله. وأتم تعليمه في مدرسة الفرندز، وحصل في عام 1952 على منحة دراسية من كلية هافرفورد في الولايات المتحدة حيث درسَ الكيمياء.

أكمل حنا ميخائيل دراسته العليا في جامعة هارفارد، ونال الدكتوراه في العلوم السياسية. وكانت أطروحته عن الفكر السياسي في الإسلام من خلال كتابات الماوردي. وبدأ حنا بتدريس العلوم السياسية في جامعة برنستون، ثم انتقل إلى جامعة واشنطن.

ترك حنا ميخائيل الولايات المتحدة عام 1969 وذهب إلى عمّان لينضم للثورة الفلسطينية. وأصبح يعرف باسمه الحركي أبو عمر. وأشرف على تنظيم جهاز الإعلام المركزي في عمان، ومتابعة الاتصالات الخارجية مع الشخصيات والقوى في أوروبا الغربية، حيث ساهم بتأسيس لجان الصداقة وشبكة من الاتصالات كما شارك بإقامة الندوات والمهرجانات.

انتقل أبو عمر من الأردن إلى لبنان عام 1971 وعمل في مركز الأبحاث الفلسطيني، وانضم إلى هيئة إدارة مركز التخطيط الفلسطيني، وكان عضوا في هيئة تحرير مجلة «شؤون فلسطينية». وترك العديد من الكتابات عن العمل الثوري والقضية الفلسطينية.

يتضمن الكتاب فصلا تروي فيه معدة الكتاب تفاصيل الجهود والمحاولات التي بذلت لمعرفة مصيره. ونظرا لقيامها بالدور الرئيسي في هذه الجهود، فإن روايتها تضم تفاصيل غير معروفة من قبل. ولذا هي الرواية الدقيقة الوحيدة غير المستندة إلى تكهنات، فالروايات التي نشرت في السنوات الماضية تفتقر إلى الدقة، وبعضها متأثر بالمواقف السياسية لكاتبيها.

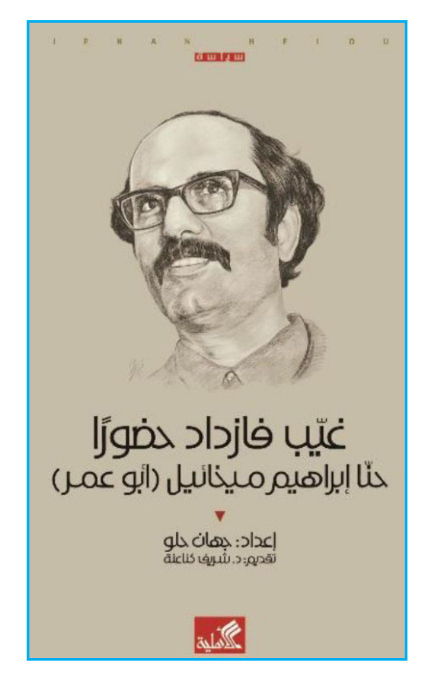
فيما يلي مقتطف من فصل البحث عن أبو عمر:

قد تبدو للكثيرين قصة اختفاء أبو عمر ورفاقه في 20 تموز 1976 قصة ثانوية من ماض منسي تراكم عليه ثقل الأحداث الجسيمة والمآسي الكثيرة، وخاصة في ظل ضعف مساهمة المثقفين وغياب المواقف المتحدية للخطاب الرسمي السائد الذي يرفض المساءلة ويبرر الهزائم والاستهتار بحياة الإنسان.

ولكن قصة الاختفاء كانت حدثا كبيرا في حينه هزت ساحة المقاومة الفلسطينية وداعميها لأن الاختفاء لم يكن في ساحة المعركة. لم يكن أبو عمر شخصية عسكرية، ولكنه رافق شخصيات عسكرية مهمة ومعروفة للفدائيين ولكوادر حركة فتح وعلى رأسها المناضل نعيم (عبد الفتاح محمود الوشاحي) مسؤول قوات نسور العرقوب وعضو المجلس الثوري لحركة فتح المعروف بكفاءته وصلابته العالية، إضافة إلى ثمانية كوادر كل واحد منهم آمر لفصيل عسكري.

الدليل على أن الزمن لا يمحو الظلم أنه حين أطلقنا الموقع الإلكتروني لأبو عمر عام 2012، اتصل معي خالد، ابن نعيم، مسرورا لهذه المبادرة، وعلمت منه أنه ما زال يفتش عن والده في سورية ولم يفقد الأمل حتى يومنا هذا (كان عمر خالد عاما حين اختفى أبوه).

شغلت قضية خطف/اختفاء أبو عمر العشرات من الشخصيات الثقافية والحزبية والنقابية المؤيدة للقضية الفلسطينية في أوروبا والولايات المتحدة ومحكمة راسل في روما. والكثير منها أرسل الرسائل، وأحيانا الوفود، للمساءلة والضغط. ومن من خلال الأهل والأصدقاء، أمكن الوصول إلى مجلس الكنائس العالمي، والبطريرك خريش، والملك حسين، والسناتور الأمريكي الذي يمثل منطقة شقيقة أبو عمر في نيو يورك، والصليب الأحمر الدولي ومنظمة العفو الدولية وغيرها، إذ أصبحت قضية حقوق إنسان.



تجدر الإشارة إلى أن هناك موقعا مخصصا لإحياء ذكرى أبو عمر، ويضم الكثير مما يحتويه الكتاب الجديد، بما في ذلك نسخة كاملة من كتاب «السياسة والوحي» باللغتين الإنجليزية والعربية، وذكريات من عرفوه عن كثب أثناء وجوده في الولايات المتحدة، والأردن، ولبنان. عنوان الموقع:

https://www.abu-omar-hanna.info

إصدارات جديدة: د فراس ميهوب

سفر الرجوع إلى أرض محترقة



أهدى الكاتب السوري، فراس ميهوب، مجلة عود الند الثقافية نسخة ورقية من مجموعته القصصية الجديدة «سفر الرجوع إلى أرض محترقة». الناشر: دار الفارابي، لبنان، 2019. تتضمن المجموعة خمسة عشر نصا. عود الند تشكر الكاتب على الهدية، علما بأن له عددا من المشاركات في المجلة. فيما يلي مقتطف من القصة التي أعطت المجموعة عنوانها.

رأيت بيتي القديم، لم يتغير كثيرا، رغم بعض الشقوق العميقة، ووافر الدمع ينصرف من مزرابه، أذكره، كان سعيدا في الأشتية العتيقة.

كنت صغيرا، أرى طيور الجنة فوق التوت، والبرتقال، يوم عدت كانت تجلس بائسة، ما لها قوة للعب.

فوق مدخنة المنزل، تجثم غربان بليدة، ترمقني بعيونها الغائرة في عمق الظلام.

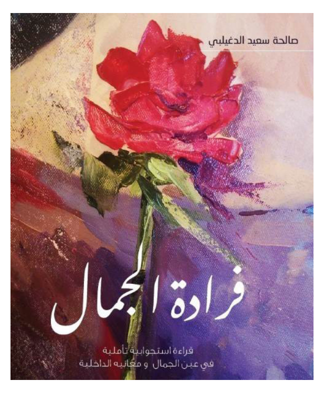
إنه مسكني، نعم، لا أشك، أعرفه، غرفتي، ألبوم صورنا السعيدة.

مرآتي مهيضة الزجاج، أطرافها المثلّمة، نظرت إليها، عرفت ما حدث.

كل شيء هو ذاته، لكن شيئا فينا انكسر. أهو القلب، أم العقل، أم وجدان كالحجر؟

إصدارات جديدة: صالحة الدغيلبي

فرادة الجمال



صدر للكاتبة السعودية، صالحة الدغيلبي، كتابها الأول الذي يضم خواطر وتأملات حول مسألة الجمال، الذي تراه الكاتبة في شؤون شتى. عنوان الكتاب: فرادة الجمال: قراءة استجوابية تأملية في عين الجمال ومعانيه الداخلية. الناشر: دار ابن النفيس، الأردن، 2019. وأقيم للكاتبة حفل توقيع ضمن نشاطات معرض الشارقة الدولي للكتاب يوم الخميس، 7 تشرين الثاني (نوفمبر) 2019. سبق للكاتبة أن نشرت في العدد السابع (12/2006) من مجلة «عود الند» الثقافية نصا عنوانه «المتعِبة والأستاذ». أدناه إحدى الخواطر المنشورة في الكتاب.

للوعد جمال

عدني أن تكون أنت كما أنت في حضورك والغياب. عدني ألا تتخلى عني. ألا يتغيّر حُبك، ولا تنطفئ معانيك، ولا تخفت أضواؤك. عدني وشُدّ على يدي مع وعدك الجميل. في زمن العتمة وعدك نور. وعدك يقتل مخاوفي، ويبدد ضجيج الحيرة، وينزع عني لباس الحذر المقيت. عدني: وعودك جمال قبل أن تتم. وعودك أمل يضيء حياتي، وتشرق معها أكثر من شمس. وعودك جنون لا تعرف معها معنى العجز والتخاذل وفكر مُعيق. عدّني وأعطني منك ملء الكون حبا وثباتا وثقة.

* غلاف الكتاب من تصميم الفنانة التشكيلية ڤاليا أبو الفضل.

إصدارات جديدة: محمد دلبج

ستون عاما من الخداع: مقتطف

البرجوازية الفلسطينية في الخليج

صدر للصحفي والكاتب الفلسطيني، محمد سعيد دلبح، كتاب جديد عنوانه «ستون عاما من الخداع. حركة فتح: من مشروع الزعيم إلى مشروع التصفية». الناشر: دار الفارابي، بيروت- لبنان، آب (أغسطس) 2019. أدناه مقتطف من الكتاب.

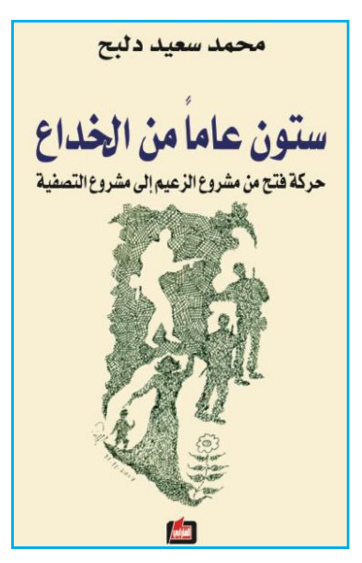


تشكلت طبقة برجوازية جديدة في المجتمع الفلسطيني قوامها الفلسطينيون الذين تمكنوا من تحويل رؤوس أموال كافية للبدء بأعمال جديدة خارج فلسطين، وأولئك الذين تمكنوا من الإقامة في الخليج، ومن كان لهم دور في التطور الاقتصادي السريع الذي طرأ على البلدان العربية الرئيسية والنفطية منها.

هذه البرجوازية الفلسطينية الجديدة تتشابه مع نظيراتها الأوروبيات في القرن التاسع عشر ببعض السمات إلا أنها تختلف عنها في أمور كثيرة أهمها: أنها تفتقد للأرض والممتلكات العقارية والمصانع (إذ أنها في دول الخليج شريك للكفيل المحلي ومعظمهم ليس مستقلا) والأهم هو أنها تفتقد قاعدة أرضية- دولة لتعمل فيها. ونتيجة لذلك ترافق تأييدها العلني للنمط الغربي للتطور الرأسمالي والاستثمار الحر مع دعم العمل السياسي ذي الطبيعة الراديكالية أكثر مما كان سائدا لدى البرجوازية الأوروبية، وتحديدا لجهة مساندتها للكفاح المسلح وحرب الشعب رغم أن بعض أعضاء هذه الطبقة وبخاصة الذين شكلوا الإنتلجنسيا الجديدة في أواخر الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين دعوا إلى التغيير الاجتماعي

الجذري داخل المجتمع الفلسطيني وفي الوطن العربي أيضا، فإن أغلبيتهم قدمت دعمها تحديدا لحركة فتح التي أعلنت عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول العربية، والتي تركز على تحرير فلسطين وإقامة دولة ديمقراطية علمانية بديلا لإسرائيل تضم المسلمين والمسيحيين واليهود على حد سواء. وتتجنب أي التزام بالتغيير الاجتماعي أو تغيير نظام اقتصادي معين بدعوى تجنب نشوب صراعات داخل الحركة الوطنية.

وقد حصلت حركة فتح في بداياتها على دعم مالي وسياسي كبير من الأثرياء الفلسطينيين في الكويت الذين يمثلون البرجوازية الفلسطينية الجديدة، أمثال طلعت الغصين، هاني القدومي، عبد المحسن القطان وهاني أبو السعود. وقد تعزز توجه هذه البرجوازية في دعم حركة فتح للدخول في تسوية سلمية مع الكيان الصهيوني يقود إلى إقامة دولة أو شبه دولة مع تزايد الخطر الذي شكله نشوء البرجوازيات المحلية في دول الخليج الذي أدى إلى توتر جديد في العلاقة بين هذه الطبقة والبلدان المضيفة وإلى القرار بإجراء تسوية سلمية للصراع العربي الصهيوني على الجبهة الفلسطينية.



ويذكر أن سياسة التسوية لم تكن تطرحها في السابق سوى بقايا الأرستقراطية الفلسطينية التي عاشت في الضفة الغربية وشرق الأردن.

في الكويت ومنطقة الخليج وفر وجود الشركات البريطانية في أوائل الخمسينات فرص عمل للفلسطينيين من أولئك الذين سبق أن عملوا مع حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين أو تعلموا في المدارس البريطانية في فترة الانتداب. ولعب أحد القادمين الأوائل إلى الكويت محسن القطان دورا رئيسيا في تطوير النظام التعليمي في الكويت، وارتبط بصلات حميمة مع عائلة الصباح الحاكمة وأبناء وبنات أهم العائلات التجارية نتيجة وضعه العلمي وأصبح فيما بعد ابنه عبد المحسن القطان (أبو هاني) نائب سكرتير وزير الأشغال العامة.

وفي عام 1959 أسس شركة الهاني للمقاولات التي نفذت العديد من المشاريع الإنشائية مثل بناء فندق شيراتون ومجمع شركة الطيران الكويتية ومستودعات مياه ضخمة ومباني سكنية وشبكة الصرف الصحي في الكويت لتتسع أعمالها في نهاية الستينات بالحصول على عقود أشغال ضخمة في السعودية والأردن واستيراد مواد البناء والآليات والأجهزة، وليصبح عبد المحسن القطان أحد أبرز رموز هذه البرجوازية في الكويت والخليج التي واظبت على تقديم الدعم المالي لحركة فتح وعجلت بانطلاقتها. وفي عام 1968 وبسبب وضعه المالي المهم ودعمه الكبير لحركة فتح منذ أواخر الخمسينات جرى انتخابه رئيسا للمجلس الوطني الفلسطيني[1].

ولم يكن القطان استثناء في هذا المجال في الكويت، فقد وجد بعض الفلسطينيين عملا لهم مع العائلات التجارية الكويتية الكبيرة، لكنهم فيما بعد فضلوا العمل بشكل مستقل في مجال التعهدات والبناء والمواصلات والهندسة والعلاقات العامة والخدمات الاستشارية للمصانع الخاصة والحكومية، ولعبت مساهماتهم المالية والجالية الفلسطينية في الكويت بشكل عام المقدمة لـ «فتح» ومنظمة التحرير الفلسطينية دورا حيويا في تمكين الحركة من النمو رغم الانتكاسات التي لحقت بحركة المقاومة في الأردن ولبنان في فترة السبعينيات.

أما هاني القدومي فكان من أوائل الفلسطينيين الذين وصلوا إلى الكويت في أعقاب نكبة عام 1948 وبسبب كونه متعلما ويجيد اللغة الإنجليزية فقد عينته الحكومة الكويتية مديرا لدائرة الجوازات والسفر والإقامة عام 1949، لكن الشيخ عبد الله المبارك الصباح نائب الأمير اختاره مديرا لمكتبه بعد سنوات حتى عام 1962 حين اختاره أمير الكويت الشيخ عبدالله السالم الصباح مديرا لمكتبه. وقد جاءته الفرصة لكي يصبح من كبار الأثرياء عندما جاء ممثلون لشركة براون آند روت (Brown and Root) الأميركية العملاقة العاملة في مجال النفط إلى مكتبه لمقابلة أمير الكويت بغرض تقديم عرض لبناء أنبوب نفط هام في الكويت وطلبوا منه أن يرشح لهم أحد أبناء العائلات الكويتية المعروفة بنفوذها ليكون وكيلا لشركتهم في الكويت كي يتابع أعمالها لدى الجهات الرسمية.

وبعد أن رست المناقصة على الشركة الأميركية حصل على عمولته التي تقدر بالملايين ليقدم استقالته ليصبح وكيلا للشركة ولينطلق في عام 1965 ليصبح أحد أثرياء النفط الجدد وواحدا من كبار رجال الأعمال في الكويت خاصة في مجال استيراد الأدوية وغيرها من المعدات الطبية [2].

وفي قطر ارتبط التاجر المعروف عبدالله درويش وعائلته بعلاقات وثيقة مع عائلة آل ثاني الحاكمة ومع الرعايا البريطانيين في الدوحة. وتم تعيينه الوكيل الرئيسي للمشتريات لشركة نفط قطر التي تعتبر شركتا شل وبريتيش بتروليوم المساهمين الرئيسيين فيها كما تبوأ فيما بعد منصب المتعهد الحكومي الرسمي لجلب العمال ودخل في شراكة مع شركة المقاولات والتجارة (CAT) الكات التي أسسها المقاول اللبناني من أصل فلسطيني إميل البستاني وكانت تعمل في فلسطين بعقود كبيرة مع الجيش البريطاني أيام الانتداب وتوسعت فيما بعد لتشمل أنشطتها لبنان وسوريا والعراق ومشيخات الخليج وعدن (جنوب اليمن) التي كانت تحت الحماية البريطانية، في مجال بناء خطوط أنابيب النفط ومصافيه.

ولعب عبدالله درويش دورا في حصول الشركة على عقود من شركة نفط قطر والحكومة القطرية بلغت مئات الملايين من الدولارات مقابل عمولات بنسبة 25 في المئة. وجلبت الشركة في أواسط الخمسينيات نحو 600 موظف وعامل معظمهم مهندسين وحرفيين مهرة من الفلسطينيين. واصبح قطر إلى جانب الكويت والسعودية مصدرا خصبا للاستقطاب لحركة فتح في أواخر الخمسينيات وأوائل ستينيات القرن العشرين وبعد حرب 1967 أصبحت الدعامة الأساسية لحركة المقاومة الفلسطينية[3].

وفي لبنان برز المصرفي الفلسطيني يوسف بيدس (ابن الأديب والمربي الفلسطيني خليل بيدس) الذي أسس بنك إنترا عام 1951 وأصبح في منتصف عام 1965 أكبر مؤسسة مالية في لبنان حيث بلغت ممتلكاته مليار ليرة لبنانية أي نحو 325 مليون دولار. ويعتبر بيدس صاحب أول تبرعٍ فاق الألف ليرة لبنانية لحركة فتح في بداياتها.

واستطاع بيدس باستخدامه الثروة الفلسطينية التي بحوزته أن يمارس بمهارة فائقة سياسة هجومية تنافسية ليحقق البنك نجاحات متتالية وازدادت ممتلكاته العقارية والتجارية في العديد من المؤسسات الاقتصادية وامتد نشاطه إلى أوروبا والولايات المتحدة وأميركا الجنوبية وأفريقيا. ودخل في تجارة السلع الأساسية ومساعدة العديد من الشركات الفلسطينية في تأسيس أعمالها في المنطقة العربية وخاصة الخليج وكان يقدم الاستشارات للعائلات الحاكمة في الخليج وحكوماتها حول كيفية استثمار أموالهم في الخارج، وأوجد فرصا كبيرة نتيجة إعادة تدوير البترودولار وأصبح منافسا للبنوك متعددة الجنسيات في اوروبا وأميركا إلى حد انتزاع بعض أعمالها في الوطن العربي وذلك

لمعرفته السوق المحلية وقدرته على إبراز موهبة إدارية فذة وفق الأسلوبين الشرقي والغربي[4].

وكان بنك إنترا في أوج النجاح. تجاوزت موازنته خمسة أضعاف موازنة الدولة اللبنانية، وأكبر بنك من بين 99 بنكا في لبنان، يستحوذ على 40% من مجمل ودائع القطاع المصرفي اللبناني. بلغتْ نسبة احتياطه، وقيمة موجوداته، 56% من النظام المصرفي اللبناني، يفوق ثاني أكبر مصرف في لبنان بمقدار 11 ضعفا. من الناحية السياسية، يقصد ثلث نواب المجلس النيابي «بنك إنترا» نهاية كل شهر ليقبضوا المال، وكان للبنك خمسة وزراء في مجلس الوزراء اللبناني.

ولكن لسوء الحظ كان هناك في المنطقة والغرب من يعارض بشدة تداخل الأعمال الفلسطينية مع الاقتصاد العربي، والاستفادة من عوائد النفط التي كانوا يسهمون في توزيعها بشكل مربح. فجرى التآمر على شركة الكات حيث توفي إميل البستاني بحادث تحطم طائرة عام 1962 قبيل ترشيحه لانتخابات الرئاسة اللبنانية، حيث ساد اعتقاد وسط الفلسطينيين أن وفاته لم تكن جراء حادث عابر بل كان نتيجة النجاح الهائل الذي حققه شخصيا وحققته شركته بواسطة توظيف الفلسطينيين وتوجيه مهاراتهم لمصلحة المنطقة ككل مما أثار منافسيه عربا وغربيين.

أما بنك إنترا الذي كان يقوم بدور الوسيط بين إمارات النفط العربية والأسواق المالية الغربية، فقد كان مستهدفا لإنهاء هذا الدور. وقد منحت سياسات بيدس في الاستثمار التي كانت تقوم على المجازفة بالودائع ورأسمال البنك الفرصة لمن كانوا يسعون إلى التخلص منه. ففي 15 أيلول/سبتمبر 1966 خلص تقرير «باركر» (الذي أعدّ بتكليف من مجلس إدارة إنترا) إلى أنّ «بنك إنترا» يواجه مشكلة سيولة مستعصية. كانت نسبة السّيولة 3,5% وهي نسبة متدنية، غير مسموح بها في أوروبا والولايات المتحدة. لاحظ التقرير أنّ سحوبات الزبائن قدْ أصبحت يوميّة، وحذّر أنّ هذه المعلومات كافية لإلحاق أكبر أذى بـ«إنترا»، إذا ما سُرِّبتْ إلى الرأي العام. ببساطة، شكّلتْ استثمارات «إنترا» الطويلة الأمد، التي يصعب تسييلها بسرعة، سبب بلوغه حافة الهاوية.

طلب يوسف بيدس من رئيس الجمهورية اللبنانية آنذاك، شارل حلو، دعمَه لنيل قرض من مصرف لبنان، لمنع أزمة سيولة أصبحت متوقعة. ماطلَ رئيس الجمهورية، ورفضت الحكومة، وعمل مصرف لبنان على تشويه صورة «إنترا»، عبر الترويج أنّ البنك على حافة الإفلاس. بالتوازي، كانتْ النخبة

الحاكمة، المعادية لبيدس، تبثّ إشاعات إفلاس «بنك إنترا» وتدعو المودعين إلى سحب ودائعهم. رغمَ أنّ الوثائق أظهرتْ البنك في حالة جيدة تنقصه فقط السّيولة الموقتة، أمّا الحكومة فلم ترفضْ إقراض «إنترا» فحسب لتلافي الانهيار، بل رفضتْ الاستماع لمحامي البنك.

منذ بداية الأزمة هدفتْ الحكومة إلى وضعَ يدها على إمبراطورية «إنترا»، ليس بهدف النفع العام، بل لتحقيق مصالح النخب الحاكمة بتقاسم هذه الإمبراطورية. لم تدّخرْ حكومة عبد الله اليافي (كذلك حكومة رشيد كرامي) جهدا لذلك، منْ الترهيب، إلى التزوير، إلى الاعتقالات. استخدمتْ مختلف الوسائل بهدف تحطيم يوسف بيدس، وتقاسم إمبراطوريّته. في مطلع تشرين الأول/أكتوبر، سحبتْ بعض المصارف، الوطنية والأجنبية، ودائعها من «بنك إنترا»، تبعها صغار المودعين الذين انتابهم الذعر. بدأت السّحوبات ببطء، ثمّ تحوّلتْ إلى تظاهرات أمام فروع «إنترا» في لبنان والخارج. ما هي إلا أيّام حتى أغلق «إنترا» أبوابه، وأعلن إفلاسه لاحقا. [5]

= = =

الهوامش

[1] باميلا آن سميث، فلسطين والفلسطينيون: 1875-1983، ترجمة إلهام بشارة الخوري (دمشق: دار الحصاد، 1991)، ط 1، ص 152.
[2] محمد ربيع، ذكريات تأبى النسيان: سباق مع الزمن (عمّان: دار ورد، 199)، الجزء 3، ط 1، ص 166.
[3] باميلا آن سميث، فلسطين والفلسطينيون، ص 153.
[4] باميلا آن سميث، فلسطين والفلسطينيون، ص 160.
[5] فادي يونس، «المؤامرة التي لم تُسقِط إمبراطورية إنترا»، الأخبار، 11 أيلول/سبتمبر 2015.

ڤاليا أبو الفضل

عن لوحة الغلاف



لوحة الغلاف من إبداع الفنانة التشكيلية السورية، ڤاليا أبو الفضل. الفنانة في سطور:

= من مواليد السويداء، سورية.
= خريجة معهد الرسم والفنون التطبيقية في سورية.
= شاركت في معارض أقيمت في سورية والإمارات العربية المتحدة ولندن وألبانيا.
= تمارس الرسم الرقمي والصحفي والغرافيك والإخراج الفني.
= بعض أعمالها مقتناة من وزارة الثقافة السورية.

المزيد من أعمال الفنانة في صفحتها في فيسبوك:

https://www.facebook.com/valia.aboualfadel



أخبار موجزة

أرشفة أعداد عود الند الفصلية

بعد التواصل مع قسم الإيداع القانوني في المكتبة البريطانية، ستتم أرشفة الأعداد الفصلية من مجلة عود الند الثقافية (نسخة بي دي اف). وهذا خبر سار للمجلة والمشاركات والمشاركين فيها بالكلمة أو اللوحة. هذا يعني أن المكتبة البريطانية سترعى هذه الأعداد مثلما ترعى الكتب وتحتفظ بها للأجيال القادمة.

المكتبة البريطانية مكتبة وطنية، وهي من أقدم مكتبات العالم، والجهة المسؤولة عن منح المجلات رقم التصنيف الدولي (ISSN)، وقد حصلت عود الند على هذا الرقم في تشرين الثاني (نوفمبر) 2007.

سيصبح ممكنا لطلبة الجامعات ورواد المكتبة معاينة هذه الأعداد بعد اكتمال أرشفتها.



الصفحة الأخيرة: عدلي الهواري

عرض كتاب ستون عاما من الخداع

للكاتب محمد دلبح

صدر في الآونة الأخيرة كتاب للصحفي الفلسطيني، محمد سعيد دلبح، يقدم فيه قراءة لمسيرة حركة التحرير الوطني الفلسطيني، فتح. يحدد دلبح في كتابه الضخم الصادر عن دار الفارابي اللبنانية (2019) ثلاثة أسباب، سأذكرها أدناه، لوصول حركة فتح ومعها الشعب الفلسطيني إلى مستنقع اتفاقية أوسلو وما نتج عنها من تصفية متواصلة للقضية الفلسطينية.

تبلور كيان حركة فتح في عام 1959، وبدأت تنفيذ عمليات عسكرية في عام 1965، وتحتفل الحركة مطلع كل عام بالذكرى السنوية لانطلاقتها. بعد هزيمة الجيوش العربية في حرب عام 1967، حدث ما يمكن اعتباره انطلاقة ثانية تمثلت في وجود منظمات مقاومة في الأردن.

حظيت فتح بتأييد شعبي كبير بعد وقوع معركة الكرامة في آذار 1968، فخلافا للمتوقع من حركات المقاومة المعتمدة على الكر والفر، كان قرار فتح التصدي للقوات الإسرائيلية الآتية للقضاء على المقاومة الناشئة.

تصدى الجيش الأردني والفدائيون من حركة فتح وقوات التحرير الشعبية للقوات الإسرائيلية، وهزمت هذه في المعركة، وتركت في الكرامة دبابات عرضت في ساحة أمانة العاصمة في عمّان.

انتشرت شعبية فتح بعد هذه المعركة كانتشار النار في الهشيم. وبفضل هذا التأييد الشعبي تحولت إلى أكبر منظمات المقاومة الفلسطينية، وبالتالي القائد الأول للنضال الفلسطيني. وكان عرفات أحد قادة فتح، ولكنه تحول تدريجيا إلى القائد الأبرز للشعب الفلسطيني، معتمدا في ذلك على كون فتح المنظمة الأكبر، وعلى الجمع بين قيادة فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية (م ت ف).

تولى عرفات قيادة م ت ف في عام 1969، وظل رئيسها حتى وفاته

في عام 2004. وكان عدد المنظمات الممثلة في المجلس الوطني الفلسطيني واللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ثماني منظمات. ولكن احتفظ كل فصيل باستقلاله التنظيمي، وكانت له برامجه السياسية.

ورد في أدبيات فتح أنها تهدف إلى تحرير فلسطين كلها، من النهر إلى البحر، بالاعتماد على الكفاح المسلح. وكانت ترفض كل «الحلول السلمية» التي تطرح لحل القضية الفلسطينية، بما في ذلك قرار مجلس الأمن الدولي رقم 242، الذي صدر بعد حرب 1967، وقبلته الدول العربية كأساس لإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل الحرب، أي استعادة الأردن للضفة الغربية، ومصر لسيناء وقطاع غزة، وسورية لمرتفعات الجولان.

دعونا نقفز إلى 1993، العام الذي تم فيه تتويج مفاوضات سرية كانت تجري في أوسلو بين م ت ف وإسرائيل بالتوصل إلى اتفاقية اعترفت م ت ف بموجبها بإسرائيل، ووافقت على حكم ذاتي فلسطيني لمدة خمس سنوات، يتم بعدها الاتفاق على الوضع النهائي للضفة الغربية وقطاع غزة، وهما قطعتان من فلسطين التاريخية بقيتا في الأيدي العربية بعد حرب عام 1948، قبل أن تحتلهما إسرائيل في عام 1967.

هذا التحول من حركة مقاومة هدفت إلى تحرير كامل فلسطين إلى حركة قبلت حكما ذاتيا محدودا على جزء صغير من فلسطين يدعو بإلحاح إلى التنقيب عن أسبابه، ولا أقصد هنا أسبابا تبرره، بل تحاول أن تفسر كيف لحركة ثورية أعلنت إنها تريد القضاء على عدوها أن تتحول إلى حركة متعاونة معه، وتقبل في عام 1993 ما كان عرض أكثر من مرة في مبادرات «سلمية» مختلفة، من بينها مبادرة ريغان التي أطلقت بالتزامن مع خروج م ت ف من بيروت عام 1982.

بخلاف التحليلات التي تعود إلى مرحلة معينة، أو حدث محدد، كحرب عام 1973، التي ظهرت بعدها مؤشرات على أن تسوية سلمية سوف تحدث، وبالتالي سيحدث انسحاب من الضفة الغربية وغزة، يعود دلبح إلى مرحلة تأسيس فتح ويرى أن العلة كانت موجودة منذ ذلك الحين. ويحدد ثلاثة أسباب لذلك.

(1) أن فتح تأسست تلبية لرغبة أصحاب رأس المال الفلسطينيين في دول عربية مختلفة ليكون لهم أرض تعطيهم حرية لم تعد متوفرة لرؤوس أموالهم حيث كانوا يقيمون ويشغلون أموالهم بعد نكبة 1948.

(2) أن مؤسسي حركة فتح من المنتمين لجماعة الإخوان المسلمين، وهذه حركة

يمينية، وكانت على خلاف مع الرئيس المصري جمال عبد الناصر.
(3) شخصية ياسر عرفات، المهتم بنفسه وبأن يكون زعيما أكثر من اهتمامه بأي شيء آخر.

بالنسبة للسبب الأول له دور، ولكن تأثيره كان بعد نجاح حركة المقاومة في ترسيخ حضورها فلسطينيا وعربيا، وبعد كثرة الحديث عن احتمالات التوصل إلى تسوية. والبرجوازيون لم يكونوا الوحيدين الذي شجعوا عرفات على السير على طريق التسوية، فبعض المثقفين الفلسطينيين في الولايات المتحدة كان لهم دور أيضا في تزيين العلاقة مع الولايات المتحدة، ومحاولة ممارسة اللوبي فيها كما يفعل الصهاينة.

السبب الثاني الذي ذكره المؤلف مجاف للواقع وانتقائي. فتح لم تكن حركة أسستها جماعة الإخوان المسلمين، بل كانت مشاركة بعض المنتمين للجماعة في تأسيس فتح نتيجة امتعاض من تردد الجماعة إزاء تأسيس حركة مقاومة. ويرى المؤلف أن وجود القوميين واليساريين في فتح كان بلا تأثير:

«وقد استغل التيار اليميني المهيمن على الحركة قيادة الحركة وهم من أصول فكرية إخوانية انضمام نخب من مواقع أيديلوجية قومية ويسارية كديكور تجميلي للحركة دون أن يحمل ذلك أي تغيير جوهري في توجهات الحركة ومسارها وهو ما ثبت لاحقا» (ص 53).

في الواقع أنه ما كان لهؤلاء أن ينضموا إلى فتح لو كانت حركة تابعة فكريا أو تنظيميا للإخوان المسلمين. وانضمامهم كان نابعا من قناعتهم بأنها حركة لا تهتم بالخلفية الأيديلوجية لمن يريد الانضمام إليها إذا كان متفقا مع أهدافها.

وبالنسبة إلى السبب الثاني أيضا، فقد طبّقه المؤلف بانتقائية، لأنه يغض الطرف عن أن فصائل المقاومة الفلسطينية الأخرى، اليسارية منها خاصة، لم تكن بعيدة كثيرا عن خطوات عرفات، بما في ذلك الفصيلان الماركسيان، أي الجبهتان الشعبية والديمقراطية، فرغم كثرة وشدة انتقاداتهما لعرفات، إلا أنهما ظلتا معه، حتى بعد توقيع اتفاقية أوسلو.

وللتأكيد على محتوى الفقرة السابقة، ما على الإنسان إلا أن يعود بالذاكرة إلى عام 1983 عندما جرت محاولة لإعادة فتح إلى مسار المقاومة (ما سمي انتفاضة وانشقاقا). هذه المحاولة لم تحظ بتأييد الجبهتين الشعبية والديمقراطية، وتفاوضت الجبهتان مع أبو جهاد، الرجل الثاني في فتح، وتوصلتا معه إلى اتفاق في عدن، الذي ظل حبرا على ورق.

اتفق مع المؤلف إلى حد كبير بالنسبة إلى السبب الثالث، ولكن ليس ضمن

السياق الزمني الذي اختاره، أي لم يبدأ من عام 1959. في رأيي أنه من الخطأ التعامل مع الستين عاما كفترة زمنية واحدة متجانسة، دون أن يؤخذ في الاعتبار ما شهدته من تطورات كالخروج من الأردن وحرب 1973 على سبيل المثال لا الحصر. وفي عام 1982، حصل الغزو الإسرائيلي للبنان، وخضعت بيروت لحصار شديد استمر ثلاثة أشهر أدى إلى خروج م ت ف من بيروت.

وبالإضافة إلى الصدامات المسلحة والحروب، لم تكن العلاقة الفلسطينية مع الدول العربية سمنا على عسل. كل هذه التطورات أحداث مهمة لا يمكن استبعادها وتبعاتها من التحليل والتقييم لمسيرة فتح أو غيرها من فصائل المقاومة.

تزيد نسبة الاتفاق مع المؤلف إذا كان منطلق التقييم عام 1982، فعرفات كان يجب أن يتنحى بعد الخروج من بيروت، ومعه باقي قادة الفصائل. انتهت مرحلة م ت ف وفصائلها في ذلك العام. هؤلاء القادة، وعلى رأسهم عرفات، أخفقوا في الأردن، وحصلوا على فرصة ثانية، ولكنهم أخفقوا أيضا في لبنان. هذا يستدعي تغييرا جذريا في متولي القيادة وأساليب النضال.

هناك مسائل تفصيلية عديدة في الكتاب أتفق مع المؤلف في بعضها وأختلف معه في أخرى. من الأمثلة التي لا أتفق معه في طريقة طرحها: الحرب الأهلية في لبنان ومشاركة المقاومة الفلسطينية فيها. كل فترة وجود المقاومة في لبنان لم يناقشها المؤلف بالتوسع الذي ناقش فيه فترة وجودها في الأردن.

بعض القضايا الكبرى والمعقدة مثل القضية الفلسطينية وموضوع الكتاب سوف تتعدد الآراء والتحليلات بشأنها، ولذا لا غرابة في أن تتفق بعض الآراء مع المؤلف كليا أو جزئيا. والاتفاق في الرأي أيضا ليس مطلوبا، فهذه قضايا فكرية، وتنوع الآراء يثري الفكر. والاختلاف في الرأي مع المؤلف لا ينتقص من أهمية الكتاب. المطلوب في رأيي الحديث عن هذه القضايا المهمة وإخضاعها للتحليل والنقاش. وقد قام المؤلف بذلك وبذل مجهودا كبيرا من أجل ذلك.

===

دلبح، محمد. 2019. **ستون عاما من الخداع: حركة فتح من مشروع الزعيم إلى مشروع التصفية**. بيروت: دار الفارابي.

«عـود الـنـد» فـي سـطـور

- صدر العدد الأول من مجلة «عـود الـنـد» الثقافية مطلع شهر حزيران (يونيو) 2006. وصدرت شهريا عشر سنوات متالية.
- حصلت «عـود الـنـد» من المكتبة البريطانية على رقم التصنيف الدولي للدوريات في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 2007. الرقم الخاص بـ«عـود الـنـد» هو: ISSN 1756-4212
- شارك في «عـود الـنـد» كاتبات وكتاب محترفون ومبتدئون من الدول العربية والمهجر.
- بعد اتمام العام العاشر، وصدور 120 عددا شهريا، تقرر تحويل المجلة إلى فصلية.
- ناشر المجلة د. عدلي الهواري. له كتابان بالإنجليزية، وثمانية بالعربية، من بينها:
  - **الديمقراطية والإسلام في الأردن؛ بيروت 1982: اليوم «ي»؛ اتحاد الطلبة المغدور؛ غسّان يبتسم؛ كلمات عود الـنـد.**

www.oudnad.net